كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

التشبيه المقلوب في القرآن الكريم بين القبول والرد

(دراسة بلاغية في تراث أهل العلم)

إعداد

د/ محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة جازان

(العدد الثامن والثلاثون الجزء الأول ٢٠١٩م)

الملخص باللغة العربية

" التشبيه المقلوب في القرآن الكريم بين القبول والرد

(دراسة بلاغية في تراث أهل العلم) "

هذا البحث يتجه لدراسة التشبيه المقلوب في القرآن الكريم، ولقد بدأ ببيان معنى القلب، وعرض آراء البلاغيين حول وجود هذه الظاهرة بصورة عامة، وبين رأيهم حول وجود ها في القرآن الكريم بصورة خاصة.

ثم عرض للتشبيه المقلوب مبينًا كل ما يتصل بهذا اللون البياني من ضوابطه الأساسية: كتعريفه، وتطوره، وبلاغته، ومواضعه، وأغراضه، وآراء البلاغيين حول وجوده في القرآن الكريم بصورة خاصة.

وانتقل بعد ذلك لدراسة وتحليل المواضع التي ذكر البلاغيون والمفسرون أنها من التشبيه المقلوب القرآن الكريم؛ وذلك ليصل البحث من خلال الدراسة والتحليل لهذه المواضع التي ذكروها إلى نتيجة، وهي عدم وجود التشبيه المقلوب في القرآن الكريم.

ولقد ذكر الباحث أسباب عدم وجود هذا اللون من البيان في القرآن الكريم، مع وجوده بكثرة في كلام الناس، معللًا ذلك بالشواهد والأدلة في كل موضع بصورة خاصة، وفي مبحث مستقل بصورة عامة.

ومن إسهامات البحث هنا: جمع مواضع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم ، وذكر آراء البلاغيين والمفسرين حولها، مع مناقشتهم والتعقيب عليهم ، وبيان ما يناسب النظم القرآني في كل موضع من الوجوه البلاغية التي تربو على التشبيه المقلوب ، وتتناسب مع جلال وروعة البيان الأعلى، مع التعليل لأسباب رفض هذا اللون البياني في القرآن الكريم.

والله من وراء القصد ،،،

mulakhis bahath " altashbih almaqlub fi alquran alkarim bayn alqabul walradi (drast bilaghiat fi turath 'ahl alelm) "

hadha albahth yatajih lidirasat altashbih almaqlub fi alquran alkarimi, walaqad bada bibayan maenaa alqulbi, waeard ara' albalaghiiyn hawl wujud hadhih alzzahirat bisurat eamatin, warayihim hawl wujud hadhih alzzahirat fi alquran alkarim bisurat khasatin.

thuma earad liltashbih almaqlub mbynaan kla ma yatasil bhdha allawn albayania min dawabitih al'asasiati: kataerifihi, watatawarahu, wabalaghatah, wamawadieih, wa'aghradihi, wara' albalaghiiyn hawl wujudih fi alquran alkarim bisurat khasatin.

waintaqal baed dhlk lidirasat watahlil almawadie alty dhakar albalaghiuwn walmufasirun 'anaha min altashbih almaqlub alquran alkarima; wdhlk liasil albahth min khilal aldirasat waltahlil lihadhih almawadie alty dhakaruha 'iilaa natayjat, wahi edm wujud altashbih almaqlub fi alquran alkarim.

walaqad dhakar albahth 'asbab edm wujud hdha allawn min albayan fi alquran alkarimi, mae wujudih bikathrat fi kalam alnaasi, mellaan dhlk bialshawahid wal'adilat fi kl mawdie bisurat khasatin, wafi mabhath mustaqilin bisurat eamatin.

wamin 'iishamat albahth huna: jame hadhih almawadie , wadhakar ara' albalaghiiyn walmufasirin hawlaha, mae munaqashatihim waltaeqib ealayhim , wabian ma yunasib alnazm alqurania fi kl mawdie min alwujuh albalaghiat alty tarbu ealaa altashbih almaqlub , watatanasab mae jalal warueat albayan al'aelaa, mae altaelil li'asbab rafad hdha allawn albianii fi alquran alkarim.

مُقَدِّمَة

الحمد لله على الذي أنزل الكتاب على عبده رحمة للعالمين، وأصلي وأسلم على خير خلق الله، الذي أرسله نورًا وهدى للبشرية جمعاء ، يهدي من شاء الله إلى صراط مستقيم.

وبعد ،،،

فإن البيان الأعلى في كتاب الله له من خصائص النظم ودقائقه ما يتميز به على سائر الكلام، مصداقًا لقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾) [النساء: ٨٢]

فكلام الناس يلحقه الاختلاف والاختلال في النظم علوًا وارتفاعًا، ووضوحًا وغموضًا، وخفاءً وظهورًا، إلى ما شئت القول في وجوه الاختلاف الكثير كما أشارت الآية. وهذه الخصوصية في البيان الأعلى ينبغي أن تكون حاضرة في ذهن كل من يتأمل في بلاغة القرآن، وما يمكن أن يحمل عليه النظم القرآني من أغراض ووجوه بلاغية، ومدى التئامها مع النظم، ومناسبتها للسياق، ولخصوصية الكمال في هذا البيان العظيم. ومن هنا جاء البحث لدراسة " التشبيه المقلوب في القرآن الكريم" لينظر فيما ذهب إليه بعض البلاغيين والمفسرين حول وقوع التشبيه المقلوب في البيان الأعلى، وجاءت دراسة هذه المواضع التي أشاروا إلى أنها من هذا اللون البياني، ليجيب البحث بعد الدراسة والتحليل عن حقيقة وجود التشبيه المقلوب في القرآن الكريم، وهل يدخل هذا الفن من التشبيه ضمن الوجوه والأسرار البلاغية التي يمكن أن تعتبر في بلاغة النظم القرآني.

ولقد جاء البحث في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

أما المقدمة : ففيها الحديث عن خصوصية البيان القرآني، واتجاه البحث لدراسة مواضع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم كما ذكرها بعض البلاغيين، وحقيقة وجوده في البيان الأعلى.

أما عن المبحث الأول: ظاهرة القلب عند البلاغيين، ويتضمن ما يلي:

أولًا: تعريف القلب.

ثانيًا: آراء البلاغيين حول وقوع القلب في القرآن الكريم.

ثالثًا: تعريف التشبيه المقلوب.

رابعًا: أسماؤه عند البلاغيين.

خامسًا: بلاغته وضوابطه وتطوره.

سادسًا: وقوعه في التشبيه الصريح، وقلة وقوعه في التمثيل.

المبحث الثاني بعنوان: التشبيه المقلوب في القرآن الكريم، ويتضمن ما يلي:

أولًا: آراء البلاغيين حول وقوع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم.

ثانيًا: مواضع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم كما ذكرها البلاغيون (تحليل وتعقيب).

المبحث الثالث بعنوان: هل يوجد في القرآن الكريم تشبيه مقلوب؟

وبعد ذلك تأتي الخاتمة متضمنة أهم النتائج.

والله أسأل أن يعفو عما كان في هذه الصفحات من طغيان الأقلام، أو زلات الأقوال ، إنه سميع قريب ، مجيب الدعاء.

وصلى الله علي سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم ،،،

المبحث الأول

ظاهرة القلب عند البلاغيين

أولاً: ظاهرة القلب وتعريفه:

ظاهرة القلب من الظواهر التي تشعبت فيها الدراسة عند اللغويين والنحويين والبلاغيين قديمًا وحديثًا، وكتب حول هذه الظاهرة دراسات مختلفة في كل ناحية من النواحي السابقة. فهناك قلب في اللغة، والصورة، والمعنى، والإيقاع، ولقد قابل هذا التشعب في دراسة القلب اختلاف آراء العلماء حوله قديمًا ما بين مجيز ومانع، ومتوسط بين الرأيين؛ وذلك الاختلاف جاء تبعًا لإدراك أسرار هذه الظاهرة، وفيما يتعلق بالدرس البياني هل هي ظاهرة مقبولة في كل الأساليب والمواضع ، أم تقبل في بعض الفنون والألوان البلاغية دون بعض؟ وتسبق الإجابة على هذا السؤال بيان معنى القلب في اللغة والاصطلاح حتى تتضح صورة القلب وأنواعه.

تعريف القلب في اللغة:

القلب في اللغة يعني: رد الشيء من جهة إلى جهة، ومنه: قلبت الثوب قلبًا"[1]. ولا تكاد تخرج دلالة القلب عند البلاغيين عما هي عليه عند أهل اللغة، وإذا كنا لا نجد له عندهم تعريفًا جامعًا مانعًا لتعدد أنماطه وكثرتها، فإنه يظل مشدودًا إلى دلالته اللغوية التي تعني رد الشيء من جهة إلى جهة، أو تقديم شيء على شيء"[2].

(١) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ١٧/٥، ط دار الفكر ، بيروت ، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، بتحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون.

(٢) جماليات القلب في البلاغة العربية للدكتور صـ صالح عيد الزهراني صـ ٣٧٤، مجلة جامعة الإمام ، العدد١٩ (١٤١٨هـ) .

تعريف القلب عند البلاغيين :

ولقد أشار إليه الخطيب القزويني وهو يتحدث عن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فقال: " ومنه [١] القلب[٢]، كقول العرب: "عرضت الناقة على الحوض"[٣] ، ورده مطلقًا قوم، وقبله مطلقًا قوم منهم: السكاكي، والحق أنه إن تضمن اعتبارًا لطيفًا قبل، وإلا رد"[٤]. والقلب الذي اختلف حوله البلاغيون هو القلب المكاني على مستوى التركيب بتقديم بعض أجزاء الكلام على بعض[٥].

---

(١) أي مما جاء على خلاف مقتضى الظاهر .

(٢) هو في الاصطلاح: هو " أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه "، أو " أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكان ذلك الأحد على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر. المطول للتفتازاني صـ ٢٩٧، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، بتحقيق الدكتور/ عبد الحميد هنداوي، ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٨٦/١ ، ٤٨٧ .

(٣) هذا من القلب المعنوي؛ لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل إلى المعروض أو يحجم عنه، لكن لما كان المعتاد في ذلك ان يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه ، وكانت الناقة هي التي يؤتى بها إلى الحوض نزل كل مهما منزلة الآخر، وقيل : إنه لا قلب في ذلك وإنما القلب في " عرضت الحوض على الناقة " ؛ لأن المعروض عليه هو المستقر. بغية الإيضاح ١٢٢/١ ، ط مكتبة الآداب، القاهرة، (١٩٩٩م). .

(٤) الإيضاح ١٢٢/١ ، ١٢٣.

(٥) يتم القلب في اللغة على مستويين : الأول : الكلمة المفردة ، ويشمل : قلب البنية كما في القلب المكاني (جبذ ، وجذب .. وهو باب واسع من أبواب العربية ينطوي على قيم جمالية كثيرة ، وقلب الدلالة بوصف الشيء بضد صفته كتسمية اللديغ بالسليم تطيرًا أو تفاؤلًا ، وتسمية المتضادين باسم واحد وأصلهما واحد: فيقال : للصبح صريم ، ولليل : صريم ، قال سبحانه (فأصبحت كالصريم) أي سوداء كالليل ؛ لأن الليل ينصرم عن النهار ، والنهار ينصرم عن الليل. والثاني : القلب على مستوى التركيب بتقديم ما حقه التأخير والعكس ، وهو محل بحث البيانيين ، وموضع اختلافهم بين قبوله ورفضه. جماليات القلب في البلاغة العربية ص ٣٧٤ وما بعدها.

ولقد كان من أسباب رفض بعض البلاغيين للقلب: ما يحدثه من لبس في الدلالة وتعمية في المعنى، وهذا مما يناقض غاية البيان التي هي الإفهام والإمتاع[١]حتى ولو تتضمن اعتبارًا لطيفًا، أو لم يتضمن؛ لأن الكلام وضع لإفادة ما يصح لا لإفادة ما لا يصح [٢].

أما من أجازوه على الإطلاق، فلقد نظروا إلى ما وراءه من أسرار الجمال التي يقتضيها السياق في بعض المواضع كما بدا لهم؛ ولذلك قبله السكاكي أينما وقع . وقال: " إنه مما يورث الكلام حسنًا وملاحة، ويشجع عليه كمال البلاغة، وأمن الالتباس، ويأتي في المحاورات ، وفي الأشعار ، وفي التنزيل"[٣] . وزاد ابن يعقوب المغربي على كلام السكاكي مبينًا أهمية القلب فقال: " قلب المراد مما يحوج إلى التنبيه إلى الأصل، وذلك يورث الكلام ملاحة، فإن قصد بها المطابقة كان من فن المعاني، وإلا صح أن يعد من فن آخر؛ لذلك يوجد هذا القلب في التشبيه المعكوس، وهو من مبادئ علم البيان، وفي علم البديع، والسرقات الشعرية"[٤].

والقلب بحثه البلاغيون في مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من علم المعاني كما سبق، وفي التشبيه المقلوب، وفي قلب التمثيل من علم البيان، وهو من قلب الصورة كما سيأتي إن شاء الله، وفي الجناس من البديع اللفظي في جناس القلب للحروف والكلمات ، وهو من القلب في الإيقاع للكلام ، وفي أبواب

(١) جماليات القلب في البلاغة العربية صـ ٣٧٩.

(٢) مواهب الفتاح١/٤٨٨.

(٣) المطول صـ ٢٩٨ .

(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١/٤٨٨.

السرقات ، وهو مما يلحق بالبديع ، وهو من قلب المعنى[١].ودراستهم لكل لون من ألوان القلب جاءت حسب ما تشتمل عليه من أغراض بلاغية يتطلبها المقام في النظم الذي جاءت فيه.

ثانياً: آراء البلاغيين حول وقوع القلب في القرآن الكريم:

اختلف البلاغيون أيضًا حول وقوع ظاهرة "القلب" في القرآن الكريم؛ وذلك بناء على اختلافهم حول ظاهرة "القلب"، " فالذين رفضوها لأنها ارتبطت في أذهانهم بالغلط والضرورة التي لا مندوحة للشاعر عنها، ولم ترتبط بتحقيق قيمة بلاغية ، فيجب تنزيه كتاب الله الكريم عنها"[٢] هم ممن رفضوا هذه الظاهرة أيضًا في القرآن الكريم.

وإلى هذا ذهب حازم القرطاجنِّي ت (٦٨٤هـ) حيث يرى أن القلب من وجوه الغموض في المعاني؛ لأنه خارج عن الطريق السوي في النظم . "[٣] ،وممن ذهب إلى منع القلب أيضًا، ولكن ليس على الإطلاق: محمد بن علي الجرجاني ت (٧٢٩هـ) ، وجاء بحثه لـ " القلب " في آخر مباحث المسند إليه.وهو يذهب إلى أن " القلب " خال من البلاغة، ولم يعتد به إلا في التشبيه المقلوب للمبالغة، وهذا في كلام الناس. وأما في كلام رب العزة فالقلب ممنوع مطلقًا، وما ورد مما يوهم القلب منه يجب تأويله بما يتفق مع النظم القرآني[٤]. ولقد وقف محمد بن علي الجرجاني

---

(١) عرفه الخطيب القزويني بأن يكون المعنى الثاني نقيض المعنى الأول ، وسمي بذلك لقلب المعنى إلى نقيضه. الإيضاح٤/١١٢.

(٢) جماليات القلب في البلاغة العربية صـ٣٨٨.

(٣) منهاج البلغاء صـ ١٨٣ ، ١٨٤ ، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط٣ ، (١٩٨٦م) بتحقيق الأستاذ/ محمد الحبيب ابن الخوجة.

(٤) القلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين صـ ١٠٧.

عند القلب أيضًا في بحث " التشبيه المقلوب " [١] منكرًا لوجوده في القرآن الكريم. وسيكون لنا وقفة عند رأيه هذا أثناء بحث التشبيه المقلوب في القرآن الكريم عند دراسة الآيات التي ذهب بعض البلاغيين إلى أنها من التشبيه المقلوب.

وممن ذهب إلى منع القلب في القرآن أيضًا: أبو حيان الأندلسي ت (٧٤٥هـ) في تفسيره البحر المحيط، وهو يرى أن بابه الشعر؛ حيث يقول: " والقلب عند أصحابنا يختص بضرورة الشعر"[٢] ، ولقد أشار إلى ذلك في مواضع متعددة من تفسيره [٣]. لكن منعه للقلب ليس على الإطلاق؛ حيث إننا سنجده يقول بالتشبيه المقلوب في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة، وينقل كلام الزمخشري حول القلب في الآية (١٧) من سورة النحل دون أن يعقب عليه قبولًا أو رفضًا [٤].

والنحويون تختلف آراؤهم حول ظاهرة " القلب " عامة، وحول وقوعه في القرآن خاصة، ولقد نقل بهاء الدين السبكي خلافهم هذا فقال: " حكى النحاة فيه أقوالًا: أحدها: أنه يجوز في الكلام وفي الشعر اتساعًا لفهم المعنى ... وإليه ذهب أبو عبيدة وأجازه أبو علي. الثاني: أنه لا يجوز لمجرد الضرورة. الثالث: أنه لا يجوز إلا للضرورة، وتضمن الكلام معنى يصح معه القلب. الرابع: أنه لا يجوز في غير القرآن، ولا يجوز أن يحمل القرآن عليه. هذا ما ذكره النحاة "[٥]. ولقد ذكر أدلة من القرآن والشعر للنحاة تركت ذكرها من باب الاختصار. ومن المانعين للقلب

---

(١) الإشارات والتنبيهات صـ ١٧١.

(٢) البحر المحيط ١٤٧/٢ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، بتحقيق الشيخ / عادل عبد الموجود.

(٣) القلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين صـ ١٠٩ وما بعدها.

(٤) البحر المحيط ٣٤٨/٢.

(٥) عروس الأفراح ٤٨٨/١.

في القرآن الكريم غير من سبق ذكرهم: أبو جعفر النحاس، وأبو القاسم الآمدي، وابن سنان الخفاجي، وابن عطية الأندلسي، وأبو السعود العمادي [١].

أما عن المجيزين لوقوع القلب في القرآن فمنهم: الفراء، وأبو عبيدة، وابن السكيت، والزمخشري، والفخر الرازي، وغيرهم [٢]. وممن توسط بين الرأيين: ابن قتيبة، والخطيب القزويني؛ حيث بين الأخير أنه إن تضمن اعتبارًا لطيفًا قبل وإلا رُد [٣]. فهو – فيما يبدو لي – لا يمنع وجوده على الإطلاق؛ وذلك لأنه في بحث التشبيه المقلوب سنراه ينقل بعض الآيات، ويتابع من قال بالتشبيه المقلوب في هذه الآيات [٤]دون أن يبدي رفضه أو تحفظه لوجود التشبيه المقلوب في القرآن الكريم.

ثالثًا: **تعريف التشبيه المقلوب**:

عرف ضياء الدين بن الأثير ت (٦٣٧هـ) التشبيه المقلوب بأنه " أن يجعل المشبه به مشبهًا ، والمشبه مشبهًا به "[٥]. وذكر الخطيب القزويني ت (٧٣٩هـ) التشبيه المقلوب، وهو بصدد الحديث عن الأغراض التي تعود إلى المشبه به، حيث يقول: " وأما الثاني فيكون في الغالب إيهام أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه، وذلك في التشبيه المقلوب وهو أن يكون الأمر بالعكس بأن يجعل فيه المشبه مشبهًا به قصدًا إلى

(١) ينظر القلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين ومراجعه صـ ٧٠-١٢٦.

(٢) جماليات القلب في البلاغة العربية صـ ٣٨٨ ، والقلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين صـ ١٤ وما بعدها.

(٣) الإيضاح ١٢٣/١.

(٤) السابق ٣٩/٣.

(٥) المثل السائر ١٥٦/٢ ، ط نهضة مصر ، القاهرة ، بتحقيق دكتور/ أحمد الحوفي ، ود كتور/ بدوي طبانة.

الادعاء أنه أكمل منه في وجه الشبه "[1] ". كما ذكر النويري ت (٧٣٣هـ) في تعريفه: " أن تقصد على عادة التخييل أن توهم في الشيء القاصر عن نظيره أنه زائد فتشبه الزائد به"[2]. وهذه التعريفات السابقة عبارتها متقاربة، وكلها تدور حول عكس التشبيه بأن يصبح المشبه به مشبهًا، والمشبه مشبهًا به بادعاء أن الثاني أكمل من الأول في وجه الشبه. ومن أمثلته البيت المشهور لمحمد بن وهيب:

وبدا الصباح كأن غرته ∴ وجهُ الخليفة حين يمتدح [3]

" فإنه قصد إيهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الوضوح والضياء، [4]

رابعا: أسماؤه عند البلاغيين:

أطلق البلاغيون على هذا اللون من التشبيه عدة أسماء، وهي: " التشبيه المقلوب، أو المعكوس، أو تشبيه القلب والعكس"[5] وسماه ابن جني ت (٣٩٢هـ) في الخصائص، وابن الأثير في "كنز البلاغة "غلبة الفروع على

(١) الإيضاح ٣٨/٣ ، ط مكتبة الآداب ، القاهرة ، (١٩٩٩م).

(٢) نهاية الأرب ٤٢/٧ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، (١٤٢٤هـ/ (٢٠٠٤م) ، بتحقيق الدكتور/ مفيد قميحة.

(٣) والغرة في الأصل البياض في جبهة الفرس ، وقد استعيرت لبياض الصبح ، والمراد تشبيه وجه الخليفة بها ، ولهذا كان التشبيه مقلوبًا . والبيت لمحمد بن وهيب الحميري من الكامل يمدح بها المأمون ، ومطلعها :

وبدا الصباح كأن غرته ∴ وجهُ الخليفة حين يمتدح

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم العباسي ١٥٣/١ط المطبعة البهية، القاهرة (١٣١٦) هـ.

(٤) سيأتي الكلام عن هذا البيت، وبيان ما فيه من أسرار الجمال والمبالغة بعد ذلك.

(٥) فن التشبيه للأستاذ علي الجندي ٢٧١/١، ط نهضة مصر، القاهرة، ط ١، (١٩٥٢م).

الأصول [١]. وأطلق عليه عبد القاهر الجرجاني ت (٤٧٤هـ) في أسرار البلاغة " جعل الفرع أصلًا، والأصل فرعًا [٢].وسماه ضياء الدين بن الأثير ت (٦٣٧هـ) " الطرد والعكس "[٣].

وأطلق عليه محمد بن علي الجرجاني ت (٧٢٩هـ) " التشبيه المقلوب [٤]. وهو نفس الاسم الذي أطلقه عليه الخطيب القزويني ت (٧٣٩هـ) كما سبق؛ حيث إن الخطيب القزويني ومحمد الجرجاني كانا متعاصرين، وللأخير تعقيبات على الخطيب كما سيتضح إن شاء الله فيما بعد. ولقد سماه العلوي ت (٧٤٩هـ) " التشبيه المنعكس" وبين أنما لقب بالمنعكس لما كان جاريًا على خلاف مجاري العادة والإلف في مجاري التشبيه"[٥].

خامساً: بلاغته، وضوابطه، وتطوره:

إن من متطلبات البحث – فيما يبدو لي – أن أقف عند أبرز معالم البحث لهذا اللون من التشبيه، وذلك من خلال بيان كيف تطور بحثه، وما وراءه من دقائق وأسرار بيانية ذكرها القدماء من البلاغيين أصحاب الآثار الجليلة، والذين كانت لهم أياد بيضاء ودراسات لافتة ودقيقة حول هذا اللون من التشبيه. وسيقف البحث وقفات سريعة ليشير إلى لمحات من دراسة التشبيه المقلوب عند ابن جني،

(١) الخصائص ٣٠٠/١ ، ط المكتبة العلمية ، (١٣٧٢) هـ (١٩٥٢) م ، بتحقيق الأستاذ/ محمد علي النجار، وعروس الأفراح٤٠٧/٣.

(٢) أسرار البلاغة صـ ٢٠٤.

(٣) المثل السائر ١٥٦/٢.

(٤) الإشارات والتنبيهات صـ ١٧٠ ، ط مكتبة الآداب ، القاهرة ، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، بتحقيق الدكتور/ عبد القادر حسين..

(٥) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣٠٩/١ ، ط مطبعة المقتطف ، القاهرة ، (١٣٣٣هـ) .

وعبد القاهر الجرجاني؛ وذلك نظرًا لأن ابن جني من أقدم من أشار إلى التشبيه المقلوب كما سبق، وبيَّن ما ينطوي عليه من المبالغة، لكنه درسه بروح اللغوي البياني؛ ولذلك جاءت إشارته لهذا التشبيه خاليه من ضوابطه الأدبية، والمواضع التي يحسن فيها والتي لا يحسن فيها ، وعلاقته بالتمثيل، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا التشبيه من مباحث. ولقد جاءت دراسة الإمام عبد القاهر للتشبيه المقلوب موضحة ومفصلة لما أجمله ابن جني، وكاشفة عن أثره في البيان من خلال ما ساقه من شواهد، وما وضع من ضوابط، مبينًا المواضع التي يحسن فيها القلب للمبالغة والتي لا يحسن فيها غرض المبالغة مع جواز القلب والعكس في التشبيه، ومتى يتأتى القلب في التمثيل، إلى غير ذلك من جوانبه الفنية ، مع الإكثار من الشواهد. وفي تصوري أن أكثر من جاء بعد عبد القاهر من البلاغيين قد نقل عنه، أو تأثر به على وجه من الوجوه في بحثه لهذا الفن، وإن لم يشر بعضهم إلى ذلك، لكن بحثهم للتشبيه المقلوب في كتبهم ينم عن هذا الأثر في وضع الضوابط، واختيار الشواهد.

ابن جني: يُعدُّ ابن جني من أقدم من أشاروا إلى التشبيه المقلوب في باب من "غلبة الفروع على الأصول" ولقد قال: " هذا فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في معاني الإعراب، ولا تجد شيئًا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة، فمما جاء فيه ذلك للعرب قول ذي الرمة:

ورمـلٍ كـأوراك العـذارى قطعتـهُ ∴ إذا ألْبَسـته المُظلمـات الحنـادِسُ [1]

(١) ألبسته: غطته ، وفي رواية جللته والحنادس : جمع حندس وهو اشتداد الظلمة ، وقد ذهب بها مذهب الوصف . والبيت من قصيدته التي مطلعها: ألم تسأل اليوم الطلول الدوارس بحُزوَى وهل تدر القفار البسابس ديوانه بشرح التبريزي صـ ٣٨٧، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ (١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م) ، بتحقيق الأستاذ/ مجيد طراد.

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا، وذلك أن العرف والعادة في نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء... فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء. وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة، أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء، وصار كأنه الأصل فيه حتى شبه به كثبان الأنقاء... فهذا من حملهم الأصل على الفرع فيما كان الفرع أفاده من الأصل، ونظائره في هذه اللغة كثيرة ." (١).

وهنا نقف عند ابن جني والذي يعد – فيما يبدو لي – أول من أشار إلى الغرض من وراء هذا النوع من التشبيه وهو المبالغة، فالمبالغة كما سيتضح هي من الأغراض الأصيلة التي يرمي إليها التشبيه المقلوب. ونظرته وهو عالم من علماء اللغة لم تتخط هذا الجانب البياني لبحث هذا الفن، بل إنه جعل الجانب البياني مقدمًا عند حديثه عن هذا النوع من التشبيه حين ذكر أنه تجده في معاني العرب ، وذكر بعد ذلك أنك تجده في معاني الإعراب ، ولقد نقلت جزءًا من كلامه حول ذلك فيما سبق . ولقد استشهد ابن جني بأمثلة مختلفة للتشبيه المقلوب " ونظرته للتشبيه المقلوب نظرة دقيقة عميقة وإن شابها مزاج اللغوي النحوي، لا اللغوي البياني"(٢). لكن استشهاده بما ذكره ينم عن ذوق يدرك أسرار الجمال في هذا النوع من التشبيه (٣).

(١) الخصائص ١/٣٠٠-٣٠٨ ، ط دار الكتب المصرية ، (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م) بتحقيق الأستاذ / محمد علي النجار.

(٢) فن التشبيه ١/٢٧٦ ، ٢٧٧.

(٣) ينظر علم الجمال اللغوي ، المعاني ، البيان ، البديع للدكتور/ محمود سليمان ياقوت ٢/٥٨١ ، ط دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، (١٩٩٥م)، والقلب عند البلاغيين والنحاة العرب للدكتور/ عيد شبايك صـ ٦٥ – ٦٧ ، ط دار حراء ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

وفي رأيي يكفيه أنه قد فتح الباب ولفت لدراسة هذا اللون من التشبيه مع تنبيهه على سره الأصيل في كلام العرب، وهو المبالغة !!

عبد القاهر الجرجاني: نخطو خطوات لنصل إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني، وكلامه حول التشبيه المقلوب جاء من خلال تحليله لشواهده، وبيان ما ينطوي عليه من ألوان الجمال ، ودقائق السحر في البيان ، ولقد ساق الحديث عنه بعد أن انتهى من الموازنة بين التمثيل والتشبيه ، مبيناً أنه باب ينفتح على دقائق وحقائق، وأنه يكثر في التشبيهات الصريحة ، وسماه " جعل الفرع أصلًا ، والأصل فرعًا" . [1]ساق الإمام كثيرًا من التشبيهات المقلوبة في أبواب مختلفة ومعانٍ شتى، وصور متنوعة، وذكر بعد ذلك أن " هذا كثير جدًا، وتتبعه في كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة"[2] .

وأتجاوز هنا الحديث عن الأمثلة التي استشهد بها لأنتقل إلى الضوابط التي ساقها لما يمكن فيه عكس التشبيه لقصد المبالغة والتخييل ، والمواضع التي يمتنع فيها قلب طرفي التشبيه لهذا الغرض ؛ وذلك لأن كلامه هنا من صميم فن البيان الذي فات ابن جني الإشارة إليه ، وضوابطه التي ذكرها حول هذا اللون مما نسج عليه أكثر البلاغيين بعده ، وإن اختلفت عباراتهم في التعبير عن مقاصده ، لكنها تلتقي معه في مضمونه وغايته.

يتحدث عبد القاهر الجرجاني عن التشبيه المقلوب، ومتى يمتنع القلب بين طرفيه، فيقول : "وإنما يمتنع هذا القلب في طرفي التشبيه لسبب يعرض في البين فيمنع منه، ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبه أحدهما

(١) أسرار البلاغة صـ ٢٠٤ – ٢١٩ ، ط مطبعة المدني ، القاهرة ، جدة ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، بتحقيق الأستاذ/ محمود شاكر.

(٢) أسرار البلاغة صـ ٢١٩.

بالآخر، فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد في الوصف الذي لأجله تشبه، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد؛ مبالغةً ودلالةً على أنه يفضل أمثاله فيه. بيان هذا: أن ههنا أشياءَ هي أصول في شدة السواد، كخافية الغراب، والقار ، ونحو ذلك، فإذا شبهت شيئًا بها كان طلب العكس في ذاك عكسًا لما يوجبه العقل ونقضًا للعادة؛ لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف، لا أن يتكلف في المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة. فأنت إذا قلت في شيء:" هو كخافية الغراب"، فقد أردت أن تثبت له سوادًا زائدًا على ما يُعهد في جنسه، وأن تصحح زيادة هي مجهولة له، وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب في السواد، فليت شعري ما الذي تريد من قياسه على غيره فيه... فإن قلت: فينبغي على هذا أن لا يجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس ، لأجل أن الصبح بالوصف الذي لأجله شُبِّه الغرة به أخص ، وهو فيه أظهر وأبغ ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافية الغراب والقار وما يشبه بهما.

فالجواب: أن الأمر وإن كان كذلك، فإن تشبيه غرة الفرس بالصبح حيث ذُكِرتْ، لم يقع من جهة المبالغة في وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ، وإنما قصد أمر آخر، وهو وقوع منير في مظلم ، وحصول بياض في سواد ، ثم البياض صغير قليل بالإضافة إلى السواد .وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة للشيء، والقصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد ، واقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون ، أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حدِّه أو قريب منه في الأصل ، فإن العكس يستقيم في التشبيه ، ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم. وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استحقاقها، واستيجاب أن يجعل أصلًا فيها فيصح على موجب دعواه وسرفه أن يجعل الفرع

أصلًا. وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه، ومثاله: قول محمد بن وهيب:

وبدا الصباح كأن غرته ∴ وجهُ الخليفة حين يمتدح [1]

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر، وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح، فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعًا، ووجه الخليفة أصلًا، " واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم: " لا يدرى أوجهه أنور أم الصبح، وغرته أضوأ أم البدر؟"، وقولهم إذا أفرطوا :" نور الصباح يَخْفَى في ضوء وجهه، أو "نور الشمس مسروق من نور جبينه " ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة . فإن في الطريقة الأولى خلابة وشيئًا من السحر، وهو كأنه يستكثر للصباح أن يشبه بوجه الخليفة، ويوهم أنه قد احتشد له، واجتهد في طلب شيء يفخم به أمره ، وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ؛ لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ، ويُزجِّي الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر ، وتجهم معترض، وتهكم قائل : "لم " ؟ ، " ومن أين لك ذلك " ؟ والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد

(١) والغرة في الأصل البياض في جبهة الفرس ، وقد استعيرت لبياض الصبح ، والمراد تشبيه وجه الخليفة بها ، ولهذا كان التشبيه مقلوبًا . والبيت لمحمد بن وهيب الحميري من الكامل يمدح بها المأمون ، ومطلعها :

العذر إن أنصفت متضح ∴ وشهود حبك أدمع سفح

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم عباسي ١٥٣/١ط المطبعة البهية، القاهرة (١٣١٦هـ) .

كان لها ضرب من السرور خاص، وحدث بها من الفرح عجيب، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنيعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها[١].

ونلحظ من خلال كلام الإمام عبد القاهر أن هناك فرقًا بين ما جرت به العادة واتفق الناس على صورته في التشبيه، وبين ما لم تجر به العادة [٢]. فالتشبيه المقلوب لا يتأتى فيه القلب بأن تجعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا لغرض المبالغة في كل المواضع، بل إنما يحسن القلب والعكس للمبالغة " فيما جرى عليه العرف والإلف لدى العرب، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب والانعكاس. وعلى هذا الأساس يحسن التشبيه المقلوب ويقبل، أما إذا ورد في غير المعهود المألوف فإنه يكون معيبًا؛ لأن المبالغة فيه تصيبه بالغموض، وتؤدي إلى التداخل بين طرفيه، فلا يعرف أيهما المشبه ، وأيهما المشبه به"[٣] " فالقلب يحسن فيما تعالمه الناس كتشبيه الشجاع بالأسد ، والجميل بالبدر والشمس... إلى غير ذلك

(١) أسرار البلاغة صـ ٢١٩ – ٢٢٤.

(٢) يلحظ أن في كلام ابن جني المتقدم إشارة إلى ناحية ما جرت به العادة عندهم ، وذلك حيث يقول : "أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا، وذلك أن العرف والعادة في نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء... فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء، وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة، أي قد ثبت هذا =الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، وصار كأنه الأصل فيه حتى شبه به كثبان الأنقاء... فهذا من حملهم الأصل على الفرع فيما كان الفرع أفاده من الأصل، ونظائره في هذا اللغة كثيرة" الخصائص ١/٣٠٠، ٣٠٢ ، ٣٠٣ باختصار. لكن إشارة ابن جني كما سبق تحتاج إلى بيان عبد القاهر الذي بين كيف يحسن عندهم من خلال الشواهد الكثيرة التي أوردها، وكيف يكون تأثيره في النفس من خلال التحليلات التي سطرها.

(٣) البلاغة في ثوبها الجديد للدكتور/ بكري شيخ أمين ٢/٤٧ ، ط دار العلم للملايين، بيروت ، ط٧ ، (٢٠٠١م) .

مما ألفته الأذواق وأنست به الأسماع ، أو مما تبتكره القرائح على مدى الأيام مما تسلم به الطباع، وتستسيغه العقول..." [1]. ولقد سلك القرآن الكريم هذا السنن ، فشبه نور الله سبحانه وتعالى وهو بلا شك أقوى الأنوار ، بنور المصباح في مشكاة؛ لأن العرب جروا على عادة أن يجعلوا نور المصباح أكبر الأنوار وأعظم الأضواء . قال تعالى : (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ) [النور: ٣٥] .

يقول بهاء الدين السبكي بعد أن بين أن الآية السابقة ليست من التشبيه المقلوب: "... وإن كان نوره أتم من المشكاة؛ لأن المقصود تشبيه ما لم يعلمه البشر بما علموه لكون المشكاة في الذهن أوضح. وقد تكون القوة في المشبه به باعتبار الوضوح، ويؤيده أنه ليس بين نوره تعالى وبين نور المشكاة اشتراك في القوة والضعف يقتضي أن أحدهما أتم في نفس الحقيقة ، فإنما هو باعتبار الوضوح"[2]. " فالقلب في التشبيه الصريح يكثر إذا لم يكن التفاوت بين طرفيه شديدًا في الصفة المشتركة بينهما، كاشتراك الخد والورد في الحمرة، فيقال: خد كالورد، وورد كالخد. فإن كان التفاوت شديدًا، وكان القصد من التشبيه المبالغة في الوصف بإلحاق الناقص في الصفة بالزائد، امتنع القلب، وإن لم تقصد المبالغة جاز القلب وساغ. فمثلًا: الشمس أصل في الإشراق والضياء، والتفاوت بينها وبين الدينار في اللمعان شديد، فإن ألحق بها الدينار ، وأريد المبالغة في لمعانه وإشراقه قيل: دينار كالشمس . ويمتنع عندئذ أن يقلب التشبيه، فيقال: " شمس كالدينار "،

(١) فن التشبيه ٢٧٨/١ باختصار.

(٢) عروس الأفراح ٤٠٨/٣.

ويراد المبالغة في وصفها بالضياء والإشراق؛ لأن هذا قول ساقط، الواقع يخالفه ويدفعه ، لكن إذا لم يرد المبالغة ، وأريد تقريب صورة الشمس ، وبيان كونها مستديرة لامعة كاستدارة الدينار صح القلب وكان سائغًا مقبولًا "[١]. وهذا ما أشار إليه البلاغيون بعد الإمام عبد القاهر، فهذا هو الفخر الرازي يعقد فصلًا للتشبيه الذي يصح عكسه، والذي لا يصح عكسه، فيقول: " إن كان الغرض من التشبيه إلحاق الناقص بالزائد مبالغة في إثبات الحكم للناقص، فهذا يمتنع عكسه، "[٢] ، وهو ما ذهب إليه النويري ، والخطيب القزويني"[٣]. وكلام ابن الأثير هنا يلتقي مع كلام الشيخ عبد القاهر في تفصيل ضوابط هذا اللون من التشبيه"[٤]. كما ذكر العلوي أن الشرط في استعماله " ألا يرد إلا فيما كان متعارفًا حتى تظهر فيه صورة الانعكاس، لأنه لو ورد في غير المتعارف لكان قبيحًا"[٥]. وهو في ذلك متابع لابن الأثير، وناقل عنه. ونجد لرشيد الدين الوطواط ت (٥٧٣هـ) كلامًا حول ما يقبل العكس من التشبيه وما فيه من وجوه الجمال "[٦]. ويضاف إلى الشرط السابق لصحة القلب في التشبيه شرط آخر وهو وجود القرينة التي تدل على مراد القائل من أنه يقصد جعل الأدنى أعلى. وفي ذلك يقول التنوخي: " والتشبيه يكون للأدنى

(١) دراسات بلاغية للدكتور/بسيوني فيود صـ١٨٩ ، ١٩٠ ، ط مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط١ ، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي صـ ١٢٧ ، ط دار صادر ، بيروت ، ط١ ، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

(٣) نهاية الأرب ٤٢/٧، الإيضاح ٤٢/٣.

(٤) المثل السائر ١٥٧/٢ ، ١٥٨ باختصار.

(٥) الطراز ٣١٠/١ ، ٣١١.

(٦) حدائق السحر في دقائق الشعر صـ ١٣٨ ، ط المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط٢ ، (٢٠٠٩م) ، بتحقيق الدكتور/ إبراهيم الشواربي.

بالأعلى غالبًا، بل لابد من ذلك ؛ لأن الغرض رفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى لا بالعكس ، وقد يقلب بعضهم ذلك مبالغة ، ولابد من قرينة تدل على مراد القالب من رفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، كقول بعضهم:

ولـم أرَ مثـل هالـةَ فـي معـدٍّ ∴ يشـابهُ حُسْـنَها إلّا الهـلالا [1]

" فالأمر لابد فيه من النية، فإذا لم يكن من نية القائل القلب ، وجرى على أصل التشبيه من إلحاق الناقص بالزائد، فهنا يمتنع العكس مع بقاء الغرض ؛ لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة في الإثبات .والتشبيه المقلوب مبني على المبالغة ، فلا يأتي شيء منه إلا والمقصود ذلك؛ ومن ثم كان الغرض من التشبيه فيه يعود إلى المشبه به حتمًا حتى تتم المبالغة في شأنه، بخلافه في غير ذلك فإنه يعود إلى المشبه"[2].

ولقد أشار أيضًا بهاء الدين السبكي إلى مسألة القصد من الشاعر في التشبيه المقلوب [3].

فمدار الأمر في التشبيه المقلوب يدور حول غرض المبالغة؛ ولذلك لابد من نية القائل لهذا الغرض، وإلا لما جاز العكس والقلب لغرض المبالغة؛ لأن العادة جارية بكون المشبه به أبلغ في وجه الشبه من المشبه. فإذا تم القلب لابد من

(١) الأقصى القريب لزين الدين محمد بن محمد التنوخي صـ٤٢، ط مطبعة السعادة، القاهرة ، ط١ ، (١٣٢٧هـ).

(٢) فن التشبيه ومراجعه صـ ٢٨٤.

(٣) عروس الأفراح٣/٤٠٨ .

النظر إلى غرض المبالغة [1] التي حولت الناقص إلى زائد، والزائد إلى ناقص حتى تكتمل الفكرة والصورة فيه.

سادسًا: وقوع التشبيه المقلوب في التشبيه الصريح، وقلة وقوعه في التمثيل:

ميدان التشبيه المقلوب الذي يجري فيه على ما سبق للمبالغة ولغيرها من أغراض القلب في التشبيه إنما يكون في التشبيهات الظاهرة الصريحة غالبًا؛ وذلك لأننا لا نحتاج في التشبيه الصريح إلى تأويل[2].

أما التمثيل فيقل فيه القلب ولا يسوغ إلا إذا كان مبنيًا على ضرب من التأول والتخييل، ولقد أدار عبد القاهر الموازنة بينهما على البيت المشهور:

---

(١) المبالغة الواقعة في التشبيه المقلوب من وجهين:

١- وهو الغالب، والكثير الشائع ، لإيهام أن المشبه به أتم في وجه الشبه من المشبه، أي في حال القلب ، مع أنه ليس كذلك في الواقع ؛ لأنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع القائل اللفظ عليه ؛ إذ الإيهام إنما هو في القلب ، واما المشبه به فأتم حقيقة.

=٢- بيان الاهتمام بالمشبه به لفظًا ومعنى ، كما إذا شبه الجائع وجهًا جميلًا يشبه البدر في الاستدارة والإشراق بالرغيف في الاستدارة واستلذاذ النفس به ، إظهارًا باهتمامك بشأن الرغيف لا غير، ويسمى هذا النوع إظهار المطلوب ؛ وذلك لإتيان صاحبه بما يدل على أنه جائع ، وأن الرغيف مطلوب عنده حتى لا يجد في خاطره عند قصد التشبيه غيره ، فإنه لما عدل عن تشبيه الوجه بالبدر الذي هو المناسب ، وعكس المعنى دل كلامه – بمصاحبة بعض القرائن الحالية – على انه جائع جوعًا أوجب له أنه إذا التفت إلى ما يشبه به هذا الوجه لم يجد أقرب من الرغيف لشدة الرغبة الموجبة لعدم زواله عن الخاطر، وإظهار المطلوب السابق لا يحسن المصير إليه إلا في مقام الطمع في تسني المطلوب. الإيضاح ٤٠/٣ ، وشروح التخليص ٤١١/٣ ، وفن التشبيه صـ ٢٨٤ ، ٢٨٥.

(٢) أسرار البلاغة صـ ٢٣٤.

وكـــأنَّ النجـــومَ بـــين دُجَـــاهُ ∴ سُـــننٌ لاحَ بيـــنهُنَّ ابتـــداعُ

وزبدة كلامه: أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلي، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن، إلا أن ذلك لا يجري مجرى قولنا: كأن النجوم مصابيح تارة، وكأن المصابيح نجوم أخرى ، ولا كقولنا: كأن السيوف بروق تومض ، وكأن البروق سيوف تسل .

وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة، وتجده العين في الموضعين، وليس هو في هذا مشاهدًا محسوسًا، وفي الآخر معقولًا متصورًا بالقلب، ممتنعًا فيه الإحساس . فإنك تجد في السيوف لمعانًا، ثم هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة ، تجده بعينه أو قريبًا منه في البروق، فلو أن رجلًا رأى من بعيد بريق سيوف تنتضى من الغموض لم يعد أن يغلط فيحسب أن بروقًا أومضت.

ومحال أن يكون الأمر كذلك في التمثيل؛ لأن السنن ليست بشيء يتراءى بالعين فيشتبه بالنجوم، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ..." [(١)].

فالوصف في التشبيه الظاهر الصريح محسوس تجده العين في الموضعين، "ونرى وجه الشبه ظاهرًا بينا في الطرفين، وفي التمثيل لا نرى ذلك إلا على ضرب من التأول والصرف عن الظاهر لما فيه من غموض وجه الشبه " [(٢)].

(١) أسرار البلاغة صـ ٢٢٥ – ٢٢٧ باختصار، وفن التشبيه صـ ٣٢٠ ، ٣٢١.

(٢) فالقلب في التشبيه الصريح مبني على أمر محقق وإن احتاج إلى تاول فهو لأجل المبالغة في الصفة، وادعاء أنها في الفرع الذي صار أصلًا أقوى وأشهر، ولكن أصل الصفة محقق في كلا الطرفين ، أما القلب في التمثيل فمبني على احتيال في التأول ، وتخيل صفات في طرفي التمثيل غير متحققة أصلًا ، ولا وجود لها إلا في الذهن كما تخيلت السنة مشرقة

فالتمثيل يحتاج إلى إعمال للعقل لاستنباط وجه الشبه من الطرفين، ولقد ساق عبد القاهر بعد ذلك الفرق بين التمثيل والتشبيه مبينًا أن التشبيه الصريح واقع في العيان وما يدركه الحس، و التمثيل الذي هو تشبيه واقع من طريق العقل (١) (٢).

مضيئة ، والبدعة مظلمة قاتمة، ويوم النوى مسودًا ، وفؤاد من لم يعشق أشد سوادًا ، فتلك الصفات لا تحقق لها في الأطراف المذكورة ، ولا وجود لها إلا في الأذهان . دراسات بلاغية صـ ١٨٦-١٩٢.

(١) أسرار البلاغة صـ ٢٣٤ -٢٣٦ باختصار.

(٢) مما يقرب من التشبيه المقلوب في حسنه وجماله لغرض المبالغة: "تشبيه التفضيل" كما أطلق عليه الحلبي ت (٧٢٥هـ) فقال: " تشبيه التفضيل وهو أن يشبه شيئًا بشيء، ثم يرجع فيرجح المشبه على المشبه به"، وذكر الهاشمي في تعريفه: " أن يشبه شيء بشيء لفظًا أو تقديرًا، ثم يعدل عن التشبيه لادعاء أن المشبه أفضل من المشبه به" ومثل له الحلبي بقول الشاعر:

حسبت جماله بدرًا منيرًا ∴ وأين البدر من ذاك الجمال؟

وقول الشاعر:

من قاسَ جَدْوَاكَ بالغمامِ فما ∴ أنْصَفَ في الحكم بين شَكْلينِ

أنت إذا جُدتَ ضاحكٌ أبدًا ∴ وهو إذ جاد دامعُ العين

ومن شواهده أيضًا: قول الوأواء الدمشقي:

من قاس جدواك يومًا ∴ بالسحب أخطأ مدحك

السحب تُعْطي وتَبْكي ∴ وأنت تُعْطي وتَضْحك

ينظر حسن التوسل صـ ١٨، ط المطبعة الوهبية ، القاهرة ، (١٣١٨هـ) ، جواهر البلاغة صـ ٢٤٠، ط المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، وبغية الإيضاح ٣٢/٤ ، ٣٣.

ونلحظ من خلال ما سبق أن التشبيه المقلوب لا يتأتى فيه القلب بأن تجعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا لغرض المبالغة في كل المواضع، بل إنما يحسن القلب والعكس للمبالغة " فيما جرى عليه العرف والإلف لدى العرب، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب والانعكاس، وعلى هذا الأساس يحسن التشبيه المقلوب ويقبل.

فالقلب في التشبيه الصريح يكثر إذا لم يكن التفاوت بين طرفيه شديدًا في الصفة المشتركة بينهما، كاشتراك الخد والورد في الحمرة، فيقال: خد كالورد، وورد كالخد، فإن كان التفاوت شديدًا، وكان القصد من التشبيه المبالغة في الوصف بإلحاق الناقص في الصفة بالزائد، امتنع القلب، وإما إن كان المقصود هو الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة أو الشكل أو اللون، فالعكس مستقيم فيه، وهو كتشبيه الصبح بغرة الفرس لا لأجل المبالغة في الضياء، بل لأجل وقوع منير في مظلم، وحصول بياض في سواد ، مع كون البياض قليلًا بالإضافة إلى السواد .

كما اتضح أن التشبيه المقلوب يكثر في التشبيه الصريح، ويقل في التمثيل لأنه يحتاج فيه إلى تأول وصرف لما فيه من غموض وجه الشبه، وبعد هذه اللمحات للخطوط العريضة حول التشبيه المقلوب [1].

(١) يراجع بحث التشبيه المقلوب ، والمواضع التي يكثر فيها ، وتطوره في الشعر ، والأغراض التي جاء فيها عند الشعراء في كتاب " فن التشبيه " للأستاذ علي الجندي صـ ٣٠٣ وما بعدها . فدراسته للتشبيه المقلوب من أوسع وأمتع الدراسات حول هذا النوع من التشبيه.

المبحث الثاني

التشبيه المقلوب في القرآن الكريم

أولاً: آراء البلاغيين حول وقوع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم:

بعد أن عرضنا في المباحث السابقة للقلب عند البلاغيين، وتبين لنا اختلاف البيانيين حول قبوله أو رده، وبعد أن عرضنا للتشبيه المقلوب في البحث البلاغي، وضوابطه وبلاغته كما رآها أهل البيان في كلام العرب شعره ونثره .

ننتقل إلى البيان الأعلى في كتاب الله عز وجل لننظر في الآيات التي ذكر بعض البلاغيين أنها مشتملة على التشبيه المقلوب، وأن وجود معنى القلب في التشبيه فيها مما يكسبها وجوهًا من البلاغة والمبالغة التي ينطوي عليها هذا اللون من التشبيه. وبداية هناك نقطة في بحث هذه المسألة لابد من بيانها حول مسألة القلب وإن كانت الإشارة قد سبقت إليها بشيء من الإجمال، وأزيدها هنا بيانًا وتفصيلًا.

فهناك من يمنع وقوع " القلب "على الإطلاق، في القرآن الكريم، وفي كلام الناس كما هو الحال عند حازم القرطاجنِّي كما سبق[1]، وكما هو الحال عند ابن سنان الخفاجي الذي يرى "أن من وضع الألفاظ موضعها : ألا يكون الكلام مقلوبًا، فيفسد المعنى ، ويصرفه عن وجهه"[2].

وهناك من يجيز القلب في كلام الناس شعره ونثره، ويمنع وقوعه في القرآن الكريم كما هو الحال عند محمد بن علي الجرجاني ، وأبي حيان الأندلسي؛ حيث

(١) منهاج البلغاء صـ ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) سر الفصاحة صـ ١١٤ – ١١٧ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .

يرى الأول " أن ما جاء في القرآن مما يوهم القلب يجب تأويله . وبين في بحث التشبيه المقلوب أن قلب التشبيه، وإن كان من محاسن البيان لما قلناه ، لكن لا يوجد في كلامه تعالى ؛ لأن كلامه على وجه التحقيق لا على وجه المبالغة التي تشبه الكذب" [١]. وهناك من يجيز وقوع القلب مطلقًا في القرآن الكريم وفي كلام الناس، ومنهم: الفراء ، وأبو عبيدة ، وابن السكيت ، والزمخشري، والفخر الرازي ، والسكاكي كما ذكر الخطيب القزويني أنه ممن قبله مطلقًا [٢]،وغيره [٣]. وممن توسط بين الرأيين كما سبق: ابن قتيبة، والخطيب القزويني ؛ حيث بين الأخير أنه " إن تضمن اعتبارًا لطيفًا قبل وإلا رُد "[٤].

هذا عن البلاغيين القدماء، ومن المعاصرين الذين لم يقولوا بوقوع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم الدكتور/ فضل حسن عباس، حيث قال تعقيبًا على بعض الآيات التي قال فيها البلاغيون بالتشبيه المقلوب :" والذي يبدو لي أن الأمر ليس كما ذكر ، بل إن كل تشبيه من هذه التشبيهات جاء على صورته من غير ما قلب ولا عكس ، وإن كل آية من هذه الآيات الكريمات جاء كل تشبيه فيها متسقًا مع السياق الذي ذكرت فيه "[٥]. أسوق هنا هذه الآراء لكي يتضح لنا منطلق كل صاحب رأي في هذه القضية ، فمن يقول بوقوع القلب في القرآن هو قائل بوقوع التشبيه المقلوب فيه تبعًا لذلك ، ومن يمنع وقوع القلب في القرآن هو أيضًا قائل

(١) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة صـ ٥٢ ، ١٧١ .

(٢) الإيضاح ١٢٢/١ ، ١٢٣ .

(٣) عروس الأفراح ٤٨٨/١ ضمن شروح التلخيص ، وجماليات القلب في البلاغة العربية صـ ٣٨٨ ، والقلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين صـ ١٤ وما بعدها .

(٤) الإيضاح ١٢٣/١.

(٥) البلاغة فنونها وأفنانها ، علم البيان والبديع صـ ١١٠ ، ط دار الفرقان للنشر والتوزيع ، الأردن ، (٢٠٠٥م) .

بمنع وقوع التشبيه المقلوب فيه تبعًا لذلك . وكاتب السطور لن يتعجل ببيان الرأي الذي رآه أولى بالقبول حتى يعرض المواضع التي ذكر البلاغيون أنها من التشبيه المقلوب في القرآن الكريم، ثم بعد ذلك يأتي التعقيب ليبين وجهة نظر البحث في هذه القضية، مع دعم الرأي المختار بالشواهد والأدلة من النظم القرآني ، ودلالة السياق.

ثانيا: مواضع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم كما ذكرها البلاغيون:

المواضع التي ذكر البلاغيون أنها تشتمل على التشبيه المقلوب في القرآن الكريم هي سبعة مواضع على خلاف فيما بينهم حول بعضها ، وهي: (١)

قوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ) [البقرة: ٢٧٥].

وقوله تعالى: (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧) [النحل:١٧] .

وقوله تعالى: (أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا) [الفرقان: ٤٣] (٢).

---

(١) سأذكر الآيات الثلاث الأولى حسب ترتيبها في المصحف ؛ وذلك نظرًا لأنها من المواضع التي ذكرها أكثر البلاغيين والمفسرين، ويرى كثير منهم أنها من التشبيه المقلوب. أما المواضع التالية ففيها خلاف بينهم، وسأذكرها بعد المواضع الثلاث الأولى حسب ترتيبها في المصحف أيضًا.

(٢) ذكر هذه المواضع الثلاثة السكاكي ، والخطيب القزويني ، ومحمد بن علي الجرجاني ، والزركشي ، وغيرهم . مفتاح العلوم صـ ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، والإيضاح ٣٩/٣ ، ٤٠ ، والإشارات والتنبيهات صـ ١٧١ ، ١٧٢، والبرهان ٤٢٧/٣ ، ٤٢٨.

وقوله تعالى: (وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ) [آل عمران: ٣٦] [١].

وقولــــه تعـــالى: (يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ) [الأحزاب: ٣٢].

وقوله تعالى: (أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ) [ص: ٢٨] .

وقوله تعالى: (أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥) [القلم: ٣٥] [٢].

الموضع الأول:

نبـدأ مـع الموضـع الأول، وهـو قولـه تعـالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ) [البقرة: ٢٧٥]. ذهب كثيـر مـن المفسـرين والبلاغيـين إلـى أن قولـه تعـالى: (ذَٰلِك بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ) من التشبيه المقلوب ، وصاحب الكشاف هو أول من أشـار إلـى أن هناك قلبًا في الآية [٣].

---

(١) ذكر بهاء الدين السبكي الآية (٣٢) من سورة الأحزاب ، وبين أنها من التشبيه المقلوب ، وذكر أن الزملكاني يرى الآية (٣٦) من سورة آل عمران من التشبيه المقلوب ، وليست كذلك . عروس الأفراح ٣/٤٠٩.

(٢) ذكر هذين الموضعين الزركشي في البرهان ٣/٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٣) لقد راجعت أكثر التفاسير المطبوعة للمفسرين قبل صاحب الكشاف ، ولم أعثر على أحد قال بالقلب في هذه الآية قبله.

حيث يقول: " فإن قلت: هلا قيل: إنما الربا مثل البيع ؛ لأن الكلام في الربا لا في البيع ، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهمًا بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلًا وقانونًا في الحل حتى شبهوا به البيع"[١].

وأكثر البلاغيين من المفسرين وغيرهم جروا على القول بوجود التشبيه المقلوب في الآية ، ففي بعض كتب التفسير وحواشيها نجد أن عباراتهم متشابهة إلى حد كبير ينقلها اللاحق عن السابق. فالبيضاوي يقول : " ... وكان الأصل إنما الربع مثل البيع ، ولكن عكس للمبالغة ، كأنهم جعلوا الربا أصلًا ، وقاسوا به البيع ،"[٢] . وهو ما ذهب إليه أيضًا جمع من المفسرين القدماء والمحدثين. ومنهم: النسفي[٣]، وأبو حيان الأندلسي [٤]، والسمين الحلبي[٥]وشيخ زاده[٦]، والطيبي[١]،

(١) الكشاف ٥٠٦/١ ، ط مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م) ، بتحقيق الشيخ / عادل عبد الموجود ، والشيخ / علي معوض.

(٢) أنوار التنزيل ١٦٢/١، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م) .

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٢٢٤/١ ، ط دار الكلم الطيب ، بيروت ، ط ١ ، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ، بتحقيق يوسف علي بديوي.

(٤) البحر المحيط ٣٤٨/٢.

(٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٦٣٣/٢، ط دار القلم ، دمشق ، (١٤٠٦هـ) ، بتحقيق الدكتور/ أحمد الخراط.

(٦) حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٦٧١/١ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، بتحقيق محمد عبد القادر شاهين.

والسيوطي [٢]، وأبو السعود العمادي[٣]، وسليمان الجمل[٤]، وإسماعيل حقي البروسوي[٥]، والشوكاني[٦]، وصديق حسن القنوجي[٧]هذا عن المفسرين .

أما عن البلاغيين، فلقد ذهب إلى القول بالتشبيه المقلوب في الآية السكاكي، حيث قال : " ومن الأمثلة ما يحكيه جل وعلا عن مستحلي الربا من قولهم: (إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ) في مقام إنما الربا مثل البيع ؛ لأن الكلام في الربا لا في البيع ذهابًا منهم إلى جعل الربا في باب الحل أقوى حالًا وأعرف من البيع" [٨]، وتابعه الخطيب القزويني[٩].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ٥٤٤/٣، ط جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، ط ١، (١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م) ، بتحقيق الدكتور/ عمر حسن القيام .

(٢) تفسير قطف الأزهار في كشف الأزهار ٥٢٧/١ ، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر ، ط ١ ، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) ، بتحقيق الدكتور/ احمد محمد الحمادي .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٤١٢/١، ط مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق الأستاذ / عبد القادر عطا.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ٢٤٢/١، ط : المطبعة العامرة الشرقية، القاهرة، ط ١ (١٣٠٢هـ) .

(٥) تفسير روح البيان ٤٣٦/٣، ط مطبعة عثمان بك، مطبعة سي، استانبول، (١٩٢٨م).

(٦) فتح القدير ٥٠٠/١، ط لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء، (١٩٩٤م) ، بتحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة.

(٧) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٣٩/٢، ط المكتبة العصرية، بيروت، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ، بتحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري.

(٨) مفتاح العلوم صـ ٣٤٤، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، (١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م) بتحقيق نعيم زرزور.

(٩) الإيضاح ٣٩/٣.

أما عن المفسرين والبلاغيين الذين جوزوا كون الآية من التشبيه المقلوب، وجوزوا حملها على غير القلب ، فمنهم: الزركشي "[١].

وهو ما أشار إليه أيضًا الشهاب الخفاجي [٢]،والقونوي [٣]، والألوسي "[٤] وهو ما ذهب إليه أيضًا جمال الدين القاسمي[٥].

أما عن البلاغيين الذين نقلوا الوجهين في الآية، فمنهم بهاء الدين السبكي حيث نقل القولين، وقال: " وقال الإمام فخر الدين في تفسيره: إنهم لما تساوى عندهم البيع والربا كان البيع مثل الربا وعكسه سواء، ومعنى هذا أنه مما أصله التشابه ، واستعمل فيه صيغة التشبيه كما سيأتي فلا يكون مما نحن فيه ، واختاره ابن المنير في الانتصاف"[٦].

أما عن المانعين للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين فمنهم: ابن المنير، فلقد قال تعقيبًا على صاحب الكشاف: " وعندي وجه في الجواب عن السؤال الذي أورده غير ما ذكر، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين في ثبوت الحكم، فللقائل أن يسوي بينهما طردًا، فيقول مثلًا: الربا مثل البيع .وغرضه من ذلك أن يقول : والبيع حلال فالربا حلال . وله أن يسوي بينهما

(١) البرهان ٤٢٧/٣.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٣٤٧/٢، ط دار صادر، بيروت، (١٢٨٣هـ).

(٣) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ٤٦٤/٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ ، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ، بتحقيق عبد الله محمود عمر .

(٤) روح المعاني ٥٠/٣، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت .

(٥) محاسن التأويل ٧٠٧/٣، ط ١، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ، بتحقيق الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي.

(٦) عروس الأفراح ٤٠٨/٣.

في العكس، فيقول: البيع مثل الربا، فلوكان الربا حرامًا كان البيع حرامًا ضرورة المماثلة. ونتيجته التي دلت قوة الكلام عليها أن يقول: ولما كان البيع حلالًا اتفاقًا غير حرام، وجب أن يكون الربا مثله، والأول على طريقة قياس الطرد، والثاني على طريقة قياس العكس، ومآلهما إلى مقصد واحد . فلا حاجة على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره ، وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذي تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح وإن كان قياساَ فاسد الوضع؛ لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضًا في تحريم الربا وتحليل البيع ، وقطع القياس بينهما. ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالًا صحيحًا فقل في الأول: النبيذ مثل الخمر في علة التحريم، وهو الإسكار ، والخمر حرام فالنبيذ حرام . وقل في الثانية: إنما الخمر مثل النبيذ، فلو كان النبيذ حلالًا لكان الخمر حلالًا، وليست حلالًا اتفاقًا، فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة، فهذا التوجيه أولى ان تحمل الآية عليه ، والله أعلم"[١]. وهو ما ذهب إليه الرازي أيضًا [٢]، والطاهر ابن عاشور "[٣].

وممن ذهب إلى منع التشبيه المقلوب في الآية من البلاغيين: محمد بن علي الجرجاني ، حيث قال: " ومثلوا أيضًا بقوله حكاية(إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ) . والأصل تمثيل الربا بالبيع .والجواب: أنه ليس من كلامه تعالى، وإنما هو كلام مستحلي الربا، ولا ريب أن الربا أظهر عندهم في الحل من البيع ، فجعلوه مشبها به لحصول شرطه فيه دون البيع ، والحكاية يجب أن تطابق المحكي"[٤]

(١) حاشية الانتصاف ٥٠٦/١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٩٨/٧ ، ٩٩ ، ط دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

(٣) التحرير والتنوير ٨٣/٣.

(٤) الإشارات والنبيهات في علم البلاغة صـ ١٧٢ .

تعقيب :

اتضح من خلال ما سبق أن الذين قالوا بأن الآية من التشبيه المقلوب، ممن تابعوا صاحب الكشاف في رأيه ؛ وذلك لأن أكثر المفسرين والبلاغيين ممن عاصروه أو جاءوا بعده دائمًا ما يرجعون إلى قوله فيما يتعلق بالتفسير البياني لآيات التنزيل؛ ولذلك فعبارات أكثرهم قديمًا وحديثًا لم تضف جديدًا ، ولم تتجه إلى ربط الآية بالسياق والنظم الذي جاءت فيه.

وكان فارس الحلبة في توجيه الآية تعقيبًا على صاحب الكشاف هو ابن المنير ، وجاء حديثه عن قياس الطرد والعكس حديثًا جليًا لمن تأمل ، كشف من خلاله أن المسألة بالنسبة لهم لا علاقة لها بالمبالغة في اعتقاد حل الربا حتى جعلوه أصلًا والربا فرعًا ، بل إن الأمر خاضع لما كانوا يتعاطونه من التعامل بالربا والبيع معًا، متغافلين عن حكم الله في الآية، وعن تحريم الربا لما فيه من الضرر وأكل أموال الناس بالباطل، فهم قد سووا بينهما في الحل في رأيهم لأنهم يتعاملون بالاثنين معًا ، وأعرضوا عن حكم الله في تحليل البيع ، وتحريم الربا .

ولقد بين ذلك الواحدي في تفسيره ، فقال : " وقوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ) أي ذلك الذي نزل بهم بقولهم هذا واستحلالهم إياه ؛ وذلك لأن المشركين قالوا: الزيادة على رأس المال بعد محل الدين كالزيادة بالربح في أول البيع، وكان أحدهم إذا حل له مال على إنسان قال لغريمه: زدني في المال حتى أزيدك في الأجل ، فكذبهم الله سبحانه فقال: (وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ

وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ")[1] فكانوا يرون "الزيادة في أول البيع ، وعند حلول الأجل سواء"، وهو ما ذكره الطبري، والبغوي، والسمرقندي أيضًا[2]. فالمسألة عندهم لا صلة لها بالمبالغة في اعتقاد حل الربا كما أشار إليه صاحب الكشاف، وكما يفهم من دلالة السياق ، فلو تتبعنا الآيات لنلمح المناسبة الدقيقة بين هذه الآية وبين ما سبقها نلمح أن سياق الآيات من أول قوله تعالى: (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٦١] يرغب في الإنفاق من خلال ضرب الأمثلة لمضاعفة الحسنات لمن ينفق في سبيل الله ، وكذلك الآيات التي جاءت بعدها تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله انفاقًا خالصًا لوجهه لا يتبعه مَنٌّ ولا أذى، وتبين أن الله يعلم ما أنفقه الإنسان من مال ، وأن الأولى إخفاء الصدقة ، لتنتقل الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية ابتغاء مرضاة الله . ثم تقابل بينهم وبين الذين يأكلون الربا، وتبين حالتهم حين يقومون من قبورهم يوم القيامة ، وهم في صورة من يصرعه الشيطان .

(١) التفسير البسيط للواحدي ٤٦٥/٤ ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عمادة البحث العلمي ، الرياض ، (١٤٣٠) هـ ، بتحقيق الدكتور/ محمد بن عبد العزيز الخضيري.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٦ ، ط مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، بتحقيق الأستاذ/ محمود شاكر ، وتفسير البغوي ٣٤١/١ ، ط دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، (١٤٠٩)هـ ، بتحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين ، وتفسير السمرقندي بحر العلوم ٢٣٤/١ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ن ط ١، (١٤١٣)هـ(١٩٩٣)م ، بتحقيق الشيخ / علي معوض وآخرين.

وإذا انتقلنا إلى ما جاء بعد الآية نجده يلتحم مع هذا الغرض ليتحدث عن محق الله (عز وجل) الربا، وإربائه للصدقة: (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾) [البقرة: ٢٧٦] ، وتبين ثواب من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وتوصي بالتقوى وترك ما بقي من الربا ، وتؤذن من يتعاطى الربا بحرب من الله ورسوله ، وتدعو إلى إنذار المعسر، ثم الوصية بالتقوى، ثم آية المداينة أطول آية في القرآن ، والحديث بعد ذلك عن الرهن .

فالسياق كله كما يبدو يسير في اتجاه الحث على الإنفاق، وبذل المال في ابتغاء مرضاة الله ، وتحريم التعامل بالربا ، وتسامح الناس فيما بينهم من معاملات، مع حفظ حقوقهم وأموالهم، وكل ذلك جاء ليهدم هذا القياس الفاسد عندهم، وهذه المماثلة الباطلة؛ نظرًا لأن الربا كان من أصول تعاملاتهم يسير مع البيع سواءً بسواء، فجاء السياق ليبين أن الربا مما حرمه الله، وأنه لا مماثلة بينه وبين البيع في الحل؛ نظرًا لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، واستغلال حاجتهم، وعدم وجود الفضل والرحمة في التعامل بينهم ، وتحليل ما حرمه الله من أمر الربا. فاستعمال صيغة التشبيه هنا لا لأجل معنى القلب في الآية كما ظن بعض البلاغيين؛ وإنما جاءت صيغة التشبيه هنا لأنه لما تساوى عندهم البيع والربا وتماثلا كان معنى هذا مما أصله التشابه عندهم، فجاءت صيغة التشبيه لمناسبة المقام، وإيضاح تصورهم للعلاقة بين البيع والربا.

وعليه فالآية ليست من التشبيه المقلوب كما يبدو، وما ذهب إليه المانعون لوجود معنى القلب في الآية أولى بالقبول، ويساعده السياق، وسوابقه ولواحقه. وفي تصوري أن سياق الآية على ما جاء عليه، قد صور حالهم واعتقادهم تصويرًا موجزًا في هذه الآية (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ) . فهذه العبارة على

وجازتها قد أجملت حالهم في تسويتهم الفاسدة بين البيع والربا ، وفيها من بلاغة الإيجاز ما يربو على بلاغة القلب في الآية ، وما يزيد على معنى المبالغة المقصودة في التشبيه، والله أعلم.

الموضع الثاني :

قوله تعالى : (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾) [النحل: ١٧] .

المجيزون للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: أشار صاحب الكشاف إلى أن هناك قلبًا في التشبيه في هذه الآية، وتبعه على ذلك عدد من المفسرين والبلاغيين، مع اختلاف في عبارات بعضهم حول تحليل التشبيه المقلوب في الآية، يقول: "فإن قلت: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة؛ تشبيهًا بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه، وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات، وشبيهًا بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله : (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ)"[(١)]. هذه عبارة صاحب الكشاف، ولقد اكتفى أبو حيان الأندلسي بنقل عبارة صاحب الكشاف حول معنى القلب في الآية، ولم يعقب عليه، وكذلك الرازي، وبدرالدين الزركشي، والسمين الحلبي، وابن عادل الدمشقي [(٢)]، وتابع محي الدين شيخ زاده:" [(١)]. وكذلك سليمان الجمل، وأحمد الصاوي "[(٢)] ، وكذلك إسماعيل البروسوي "[(٣)].

---

(١) الكشاف ٤٢٩/٣، ٤٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٤٦٧/٥، ٤٦٨، وتفسير الرازي ١٢/٢٠ ، والبرهان في علوم القرآن ٤٢٨/٣، والدر المصون ٢٠٤/٧ ، ٢٠٥ ، واللباب في علوم الكتاب ٣٦/١٢ ، ط دار الكتب العلمية ،

هذا عن المجيزين للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين، أما عن البلاغيين المجيزين لقلب التشبيه في الآية: فمنهم السكاكي: فلقد أشار إلى القلب في الآية فقال: " ومن الأمثلة ما قال تعالى: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ) لمزيد التوبيخ فيه دون أن يقول : أفمن لا يخلق كمن يخلق ، مع اقتضاء المقام بظاهره إياه لكونه إلزامًا للذين عبدوا الأوثان ، وسموها آلهة تشبيهًا بالله تعالى ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ..." [٤]، وهو ما ذهب إليه أيضًا قال الخطيب القزويني متابعًا لصاحب المفتاح[٥].

أما عن المفسرين والبلاغيين الذين جوزوا كون الآية من التشبيه المقلوب، وجوزوا حملها على غير القلب:

فمنهم: الطيبي شارح الكشاف، حيث قال: " وجه السؤال أن المشركين ما شبهوا الخالق بالأصنام حتى ينكر عليهم بقوله: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ)،وإنما شبهوا الأصنام بالخالق ، فكان حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

بيروت ، ط ١ ، (١٤١٩)هـ(١٩٩٨)م ، بتحقيق الشيخ/ عادل عبد الموجود، والشيخ/ علي معوض .

(١) حاشية شيخ زاده ٢٥٨/٥.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٥٩٤/٢، حاشية الصاوي على الجلالين ٢٥٨/٢، ط المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ط ١ ، (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م).

(٣) روح البيان ٢٢/٥.

(٤) مفتاح العلوم صـ ٣٤٤.

(٥) الإيضاح ٣٩/٣ .

ووجه الجواب: أن وجه التشبيه إذا قوي بين الطرفين، أعني المشبه والمشبه به يرجع التشبيه إلى التشابه، فيقال : فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق! قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه، والعبادة له ، وسووا بينه وبينه ، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات ، وشبيهًا بها فأنكرعليهم بذلك بقوله : ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ﴾ "[1].والطيبي هنا "يجوز أنه [أي صاحب الكشاف] يريد أنهما لما تساويا صح تشبيه كل بالآخر، وأن يكون من قلب التشبيه"[2]. وكذلك البيضاوي" [3].

والشهاب الخفاجي يرى أن كلام البيضاوي يحتمل الوجهين"[4]. وذكر القونوي أيضًا القولين في الآية، "أي من ذهب إلى أن الآية من باب العكس في التشبيه ، أو أنها من باب التشابه ، وليس من باب القلب في التشبيه ، مع ملاحظة عبارة البيضاوي حول الآية لكونها محتملة للمعنيين، وأشار إلى أن المصنف [أي البيضاوي] قد نبه إلى مسألة التشابه في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: ١٩] على أن المقصود من مثل هذا الكلام التشابه لا التشبيه" للعدول عن حق الكلام"[5].وممن نقل الوجهين في الآية من البلاغيين، ولم يظهر رأيه بوضوح حيال قبول القلب في الآية أو رده : بهاء الدين السبكي: ولقد نقل كلام الخطيب القزويني أولًا ، ثم نقل

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ٩٧/٩ ، ٩٨.
(٢) عروس الأفراح ٤٠٩/٣ .
(٣) أنوار التنزيل ٢٢٣/٣ باختصار.
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٣٢٠/٥.
(٥) حاشية القونوي ٢٤٥/١١.

عبارة صاحب الكشاف، وما عقب به الطيبي في شرحه على الكشاف[1]، فلا حاجة لإعادة نقل الكلام هنا.

أما عن المفسرين والبلاغيين المانعين لقلب التشبيه في الآية ، فمنهم : برهان الدين البقاعي ، حيث قال :" (أَفَمَن يَخْلُقُ) أي يجدد ذلك حيث أراد ومتى أراد ، فلا يمكن عجزه بوجه لتمكن شركته (كَمَن) شركته ممكنة ، فهو أصل في ذلك بسبب أنه (لَّا يَخْلُقُ) أي لا يقع ذلك منه وقتًا ما من الأصنام وغيرها في العجز عن الإتيان بما يقوله ، المستلزم لأن يكون مخلوقًا ، ولو كان التشبيه معكوسًا كما قيل لم يفد ما أفاد هذا التقدير من الإبلاغ في ذمهم بإنزال الأعلى عن درجته "[2] . فالبقاعي يرى هنا أن النظم أبلغ في المعنى دون الحمل على التشبيه المقلوب؛ حيث أفاد قدرة الله ووحدانيته ، وعدم إمكان شركته بوجه من الوجوه ، في مقابل من هو أصل في العجز المستلزم لكونه مخلوقًا ، وهي الأصنام . ونقل الألوسي القول بالتشبيه المقلوب، لكنه لم يتبن هذا الرأي كما يبدو من عبارته ، وكذلك جمال الدين القاسمي ، والطاهر ابن عاشور أيضًا ممن لم يقل بقلب التشبيه في الآية. [3]

أما عن المانعين للتشبيه المقلوب في الآية من البلاغيين: فمنهم: محمد بن علي الجرجاني ؛ حيث قال:" ومثلوا [أي للتشبيه المقلوب] بقوله : (أَفَمَن

(١) عروس الأفراح ٣٠٩/٣.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢٩/١١ ، ط دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، (١٤٠٤هـ/١٩٨٩م) ، بتحقيق محمد عمران الأعظمي.

(٣) روح المعاني ١١٨/١٤، ومحاسن التأويل ٣٧٩١/١٠، والتحرير والتنوير ١٢٣/١٤.

يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ) قالوا : لأن الخطاب للذين شبهوا من لا يخلق بمن يخلق.

والجواب: المنع من أن الكفار شبهوا، بل عبدوا من لا يخلق مكان من يخلق، وليس ذلك بتشبيه، أما الباري تعالى فقد سلب التشبيه؛ لأنه استفهم على وجه الإنكار الذي هو في قوة السلب، وفرق بين التشبيه وسلبه، فإن التشبيه مشروط بكون وجه الشبه أظهر في المشبه به من المشبه، وسلبه لا يستلزم ذلك ؛ لأنه ليس فيه شبه حتى يكون أظهر أو أخفى. وحينئذ لا فرق بين التقديم والتأخير في سلب التشبيه، وإنما قدم من يخلق لشرفه فقط"[(١)].

(١) الإشارات والتنبيهات صـ ١٧١، ١٧٢.

تعقيب:

اتضح من خلال ما سبق أن من ذهب إلى أن قوله تعالى : (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ) من باب التشبيه المقلوب يرى أن هناك عكسًا في الكلام ؛ حيث إن الخطاب لعبدة الأوثان التي سموها آلهة تشبيهًا بالله تعالى ، فجعلوا غير الخالق كالخالق. وكان مقتضى الظاهر – في رأيهم – أن يكون السياق (أفمن لا يخلق كمن يخلق)، لكن جاء على القلب؛ لأنهم بالغوا في عبادة الأوثان حتى صارت أصلًا عندهم في العبادة، وصار الخالق فرعًا. وذهب بعضهم إلى أن عكس هذا النظم للتنبيه على كمال جهالة المشركين كما ذهب إليه شيخ زاده، أو للتنبيه على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهًا بها كما ذهب إليه البيضاوي، أو للتوبيخ كما ذكر السكاكي، أو أن العكس لمزيد التقريع والتجهيل لهم كما ذكر الشهاب الخفاجي، أو للتشنيع عليهم كما ذكر أحمد الصاوي ، وهي عبارات متقاربة.

أما عن المانعين لقلب التشبيه في الآية: فلقد ذهبوا إلى أنه لا قلب في الآية، واختلف توجيههم لها، فمنهم من رأى أن الآية من باب التشابه لا من باب التشبيه؛ حيث إنهما لما تساويا صح تشبيه كل منهما بالآخر كما ذكر الطيبي في توجيه كلام صاحب الكشاف [1]. والتشابه كما يراه البلاغيون يعني "ترك التشبيه؛ حيث إنه لا يراد إلحاق ناقص بزائد في وجه الشبه حقيقة أو ادعاءً ، وإنما المقصود: مجرد الجمع بين شيئين في أمر، ليكون كل واحد من الطرفين مشبهًا

(١) ولقد نقل الطيبي القولين، وأراد أن يبين أن كلام صاحب الكشاف يحتمل الوجهين كما سبق، وكما بينه السبكي.

ومشبهًا به احترازًا من ترجيح أحد المتساويين على الآخر"[١] فهو كما ذكره ابن يعقوب المغربي: " بأن يؤتى بما يدل على التشابه والتساوي ، وذلك بأن يعبر بالتفاعل المقتضي لحصول مدلوله من الجانبين ، فيكون كل من الأمرين مشبهًا ومشبهًا به ، فلا يكون من التشبيه السابق المقتضي لتعين المشبه من المشبه به " [٢].فمضمون التشابه: التساوي"[٣]. ولا يفهم من هذا أن التشابه لا ينطوي على قصد المبالغة، فقد "يقتضي المقام ادعاء المبالغة في التساوي، أو يكون الغرض إفادة أصل الاشتراك، فيكون المقصود إفادة التساوي ادعاءً أو حقيقة"[٤].

ولقد نقلت كلام البلاغيين حول " التشابه " حتى لا يظن أن مجرد القول بالتشابه لا ينطوي على غرض بلاغي، بل إن "التشابه" قد يكون مقصودًا لذاته لغرض المبالغة كما سبق. ومما ذهب إليه المانعون لقلب التشبيه في الآية أن النظم على ما جاء عليه أبلغ في المعنى وأدق من الحمل على التشبيه المقلوب حيث أفاد قدرة الله ووحدانيته، وعدم إمكان شركته بوجه من الوجوه، في مقابل من هو أصل في العجز المستلزم لكونه مخلوقًا، وهي الأصنام. وهو ما رآه البقاعي كما سبق. ورأى بعضهم أن الباري سبحانه وتعالى قد سلب التشبيه من الآية؛ لأنه استفهم على وجه الإنكار الذي هو في قوة السلب، وفرق بين التشبيه وسلبه، فإن التشبيه مشروط بكون وجه الشبه أظهر في المشبه به من المشبه، وسلبه لا يستلزم ذلك؛ لأنه ليس فيه شبه حتى يكون أظهر أو أخفى. وحينئذ لا

(١) الإيضاح ٤١/٣.
(٢) مواهب الفتاح ٤١٢/٣.
(٣) عروس الأفراح ٤١٢/٣.
(٤) بغية الإيضاح ٤١/٣.

فرق بين التقديم والتأخير في سلب التشبيه، وإنما قدم من يخلق لشرفه فقط كما يرى محمد بن علي الجرجاني.

وإذا جئنا إلى الترجيح، فإن ما يشهد له السياق والنظم ما ذهب إليه المانعون لوجود قلب التشبيه في الآية؛ وذلك لأن السياق من بدايته هو حديث عن الخلق والإيجاد للنعم التي أنعم الله (عز وجل) بها على عباده بداية من الحديث عن خلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان، والأنعام وما فيها من منافع، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة، وخلق ما لا نعلم. ثم الحديث عن إنزال الماء من السماء، وما فيه من منافع: للشرب، والزرع، وخروج الثمرات من الأرض ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، وما ذرأ في الأرض من النبات المختلف ألوانه . ثم الحديث عن البحر، وما فيه من اللحم الطري، والحلية التي تستخرج منه، ورؤية الفلك المواخر فيه لابتغاء فضله سبحانه، وإلقاء الرواسي في الأرض، والأنهار والسبل للاهتداء، والعلامات في الجبال والأنهار والطرق للاهتداء، وكذلك الاهتداء بالنجوم في الليل. فهذا كله حديث عن الخلق والقدرة والإيجاد لهذه النعم والآيات من الآية الثالثة إلى الآية السابعة عشرة موضع البحث ، فإن الذي يناسب النظم والسياق بعد ما تم ذكره من نعم إنما هو الإشارة إلى من خلق كل هذا وأوجده من العدم إظهارًا لقدرته وعظمته وجلاله سبحانه في مقابلة الأصنام التي لا تخلق شيئًا؛ حيث إنها أصل في العجز ، كما أنه سبحانه أصل في القدرة والوحدانية والخلق. فلا يناسب أن يكون الكلام من باب القلب، ويؤيد ذلك أن الاستفهام عن المساواة في الآية هو استفهام إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق. فالكاف للمماثلة، وهي مورد الإنكار؛ حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى. فلا حاجة إلى القول بقلب التشبيه في الآية ردًا على المشركين في زعمهم، بل إن السياق جاء لنفي وجود المساواة أو المماثلة بين الخالق سبحانه وبين الأوثان

التي عبدوها، لا لأنهم جعلوها أصلًا، والخالق فرعًا كما أوَّلَه من قال بالقلب في الآية.ويشهد لذلك أيضًا بقية السياق بعد ذلك، فهو حديث عن نعم الله التي لا تحصى، وعلم الله ما يسرون وما يعلنون، وأن أصنامهم التي يدعونها لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة، بل هي ميتة ليس لها حياة، ولا تدري متى تبعث فمجيء النظم على ما جاء عليه أبلغ في الرد على من يعبدون الأوثان، وهذا مع ملاحظة مناسبة النظم من أوله ؛ ولذلك جاء الحديث عن الخلق والإيجاد لهذه النعم ، فهي أبلغ رد على عبدة الأوثان في مقابل عجز أصنامهم ، وعدم نفعها فتقديم من يخلق هنا لشرفه، وعلو منزلته، وبيان كونه أحق بالعبادة، والوحدانية، ونفي الشركة عنه، وهذا المعنى في التقديم أبلغ وأنسب للنظم من القول بقلب التشبيه. وأنقل هنا جزء من عبارة الواحدي حول الآية حيث قال:" وإنما قال: (كَمَن لَّا يَخۡلُقُ) للوثن لاقترانه في الذكر مع الخالق... وقال أهل التأويل: معنى هذه الآية إنكار تشبيه من يخلق بمن لا يخلق بالتسوية بينهما في العبادة، كما لا يجوز أن يسوى بين من ينعم ومن لا ينعم في الشكر"[1]. فسياق الآية في نفي المماثلة، وإنكار التسوية بين الخالق والمخلوق في العبادة، ومراعاة مقام التقديم الذي سبقت الإشارة إليه أقوى وأبلغ في إفادة معنى تفرد الله سبحانه بالخلق والإيجاد، والتشنيع والتقريع لعبَّاد الأوثان والله أعلم.

(١) التفسير البسيط ٣٧/١٧، ٣٨ باختصار. .

الموضع الثالث:

قولـــــه تعـــــالى: (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) [الفرقان: ٤٣]

المجيزون للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: في هذه الآية تنوعت عبارات المفسرين ما بين القول بالتقديم للمفعول الثاني لـ (ٱتَّخَذَ) وهو(إِلَٰهَهُۥ) على المفعول الأول(هَوَىٰه) للعناية كما يرى صاحب الكشاف ، أو كون التقديم للحصر كما ذهب إليه ابن المنير في الانتصاف[١].

وقد بنى بعض المفسرين على رأي صاحب الكشاف هذا حول التقديم في الآية القول بالقلب فيها، وبنوا عليه أيضًا القول بالتشبيه المقلوب في الآية.

بينما يرى بعض المفسرين أن هناك تقديمًا في الآية، لكن لا يلزم من التقديم وجود القلب في الآية؛ حيث إن التقديم والتأخير شيء، ومعنى القلب في الكلام شيء آخر، وهو ما ذكره السمين الحلبي، وبنى عليه القول بعدم وجود قلب كما ذهب إليه من تابعوا صاحب الكشاف، وقد تابع في ذلك أبو حيان كما سيتضح إن شاء الله.

---

(١) ذهب ابن المنير إلى أن هناك نكتة حسنة حول التقديم ، وهي إفادة الحصر " فإن الكلام قبل دخول (أرأيت) مبتدأ وخبر ، المبتدأ: هواه ، والخبر : إلهه ، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر ، فكأنه قال : أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه ، والله أعلم" حاشية الانتصاف ٣٥٣/٤ .

وعبارة صاحب الكشاف هي التي كانت سببًا لاختلافهم حول القلب والغرض منه في الآية؛ حيث قال:" فإن قلت لم أخَّرَ(هَوَىٰه). والأصل قولك : اتخذ الهوى إلهًا ؟ قلت: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية، كما تقول: علمت منطلقًا زيدًا لفضل عنايتك بالمنطلق"[١]. ولقد دافع الطيبي عن رأي صاحب الكشاف، مبينًا أن "المشبه به هاهنا: الإله، والمشبه: الهوى؛ لأنهم نزلوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإله، وإليه الإشارة بقوله: (اتخذ الهوى إلهًا)، فقدم المشبه به الأصلي، وأوقعه مشبهًا ليؤذن بأن الهوى في باب استحقاق العبادة لها أقوى من الإله تعالى ، كقوله تعالى: (إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ) [البقرة: ٢٧٥] ولمَّح صاحب المفتاح إلى هذا المعنى في كتابه ، وإنما قال المؤلف: ما هو إلا تقديم المفعول على الحصر لئلا يتوهم متوهم خلافه"[٢] .

ولقد تابع البيضاوي صاحب الكشاف في القول "بتقديم المفعول الثاني للعناية به"[٣] ، ولم يزد على ذلك، وأيده الشهاب الخفاجي أيضًا "[٤]، كما تابع القونوي الشهاب فيما ذهب إليه أيضًا حول تقديم المفعول الثاني للعناية متابعة كاملة[٥]، وهو ما ذهب إليه أيضًا أبو السعود العمادي [٦]، والشوكاني[٧]، وهو ما

(١) الكشاف ٣٥٣/٤ .
(٢) حاشية الطيبي على الكشاف ٢٤٣/١١ .
(٣) أنوار التنزيل ١٢٥/٤ .
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٤٢٦/٦ .
(٥) حاشية القونوي على البيضاوي ١٠٦/١٤ .
(٦) تفسير أبي السعود ٢٢١/٦ .
(٧) فتح القدير ١٠٤/٤ .

يفهم من عبارة الألوسي؛ حيث صدر تفسير الآية بنقل كلام صاحب الكشاف ، ونقل كلام الطيبي في الرد على من عارضه[١].

وإذا جئنا إلى البلاغيين القائلين بالتقديم على معنى القلب في الآية وجدنا منهم صاحب المفتاح، حيث قال:" وقوله عز وجل: (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) بدل أرأيت من اتخذ هواه إلهه مصبوب في هذا القالب، فأحسن التأمل تر التقديم قد أصاب شاكلة الرمي"[٢] ، وهو ما ذهب إليه الخطيب القزويني [٣]؛ حيث اكتفى بنقل الآية دون أن يعلق عليها متابعًا لصاحب المفتاح. ولقد نقل بدر الدين الزركشي أن السكاكي يرى أن الآية من باب القلب [٤]، وكما يلاحظ أن القائلين بالتقديم هنا يرون معنى القلب في الآية كما رآه شراح الكشاف ومتابعوه. أما عن المجيزين للوجهين في الآية من المفسرين والبلاغيين فلقد اكتفى بعضهم بنقل الآراء حول التقديم والقلب في الآية، ولم يتبنوا رأيًا معينًا أو توجيهًا محددًا لها، ومنهم: الجمل في حاشيته على الجلالين[٥]، وابن عادل الدمشقي في اللباب[٦]، وصديق حسن القنوجي[٧].

(١) روح المعاني١٩/٢٣ .
(٢) مفتاح العلوم صـ ٣٤٤، ٣٤٥.
(٣) الإيضاح ٣/٤٠ .
(٤) البرهان ٣/٤٢٨.
(٥) حاشية الجمل على الجلالين ٣/٢٧٦.
(٦) اللباب في علوم الكتاب ١٤/٥٣٩.
(٧) فتح البيان في مقاصد القرآن ٩/٣١٢، ٣١٣.

ووجه الطاهر ابن عاشور التقديم في الآية توجيهًا دقيقًا أشار فيه إلى الوجهين في الآية مع التقديم، ومع ترك التقديم،"[١].

وإذا انتقلنا إلى المفسرين والبلاغيين المانعين للقلب في الآية، وجدنا منهم : الرازي ، حيث ذهب إلى تفسير الآية على ترتيب النظم ، ولم ير في الآية قلبًا "[٢].وهو ما ذهب إليه أيضًا أبو حيان الأندلسي[٣]، ويرى السمين الحلبي أن الآية من التقديم والتأخير، وليست من القلب ، وذلك بعد أن نقل كلام أبي حيان السابق حيث قال: " على أن هذا ليس من القلب المذكور في شيء، إنما هو تقديم وتأخير فقط"[٤].

ومن المانعين للقلب في الآية: برهان الدين البقاعي؛ حيث بين أن نظم الآية عند القلب يحيل المعنى إلى خلاف المقصود، وأقتبس هنا بعضًا من كلامه حيث قال:" (إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) أي أنهم حقروا الإله بإنزاله إلى رتبة الهوى، فهم لا يعبدون إلا الهوى، وهو ميل الشهوة ورمي النفس إلى الشيء... فالمعنى أن هذا المذموم قصر نفسه على تأله الهوى فلا صلاح له ولا رشاد، وقد يتأله الهوى غيره. ولو قيل: من اتخذ هواه إلهه لكان المعنى أنه قصر هواه على الإله فلا غي له؛ لأن هواه تابع لأمر الإله، وقد يشاركه في تأله الإله غيره ...فلو عكس لقيل: لم يتخذ هوىً إلا إلهه، وهو إذ فعل ذلك فقد سلب نفسه الهوى، فلم يعمل به إلا فيما وافق أمر إلهه... ولو كان التقديم بمجرد العناية من غير اختلاف في الدلالة قدم

(١) التحرير والتنوير ٣٥/١٩ باختصار.
(٢) تفسير الرازي ٨٦/٢٤.
(٣) البحر المحيط ٤٥٩/٦.
(٤) الدر المصون ٤٨٦/٨.

في الجاثية (الهوى) [1]، فإن السياق والسباق له.وحاصل المعنى: أنه اضمحل وصف الإله، ولم يبق إلا الهوى، فلو قدم الهوى لكان المعنى أنه زال وغلبت عليه صفة الإله، ولم يكن النظر إلا إليه ، ولا الحكم إلا له"[2] .

أما عن البلاغيين المانعين للقلب في الآية، فمنهم: محمد بن علي الجرجاني حيث قال:" مثلوا أيضًا بقوله تعالى (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) فإن الأصل تشبيه الهوى بالإله دون العكس. والجواب: أنه ليس من التشبيه في شيء؛ لأن مراده: أفرأيت من جعل عوض إلهه هواه، ولم يرد تشبيه هواه بإلهه، ولا العكس؛ وذلك لأنهم لم يصرحوا بالتشبيه بينهما، بل جعلوا الهوى مكان الإله في الاتباع، وعلى تقدير التشبيه يكون حكاية، ولم يكن من كلامه تعالى"[3].

فمحمد بن علي الجرجاني يرى أن الآية ليست من التشبيه ولا من العكس في شيء؛ حيث إن المعنى والنظم يستقيم على الترتيب، ويفيد أنه جعل الهوى مكان الإله في الاتباع. ولقد ذهب بهاء الدين السبكي إلى منع قلب التشبيه في الآية أيضًا " [4].

تعقيب:

في هذه الآية الكريمة رأى كثير من المفسرين والبلاغيين أنها من باب التقديم على معنى القلب، وبنوا على ذلك القول بوجود التشبيه المقلوب في الآية

---

(١) يشير هنا إلى قوله تعالى: (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾) [الجاثية: ٢٣].

(٢) نظم الدرر ٣٩٤/١٣ باختصار.

(٣) الإشارات والتنبيهات صـ ١٧٢.

(٤) عروس الأفراح ٤٠٩/٣.

كما سبق في عبارة الطيبي التي شرح بها عبارة صاحب الكشاف. ورأوا أن السر البلاغي وراء القلب أبلغ من القول بعدم وجود القلب في الآية؛ حيث إنهم [أي الكافرين] نزلوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإله، وإليه الإشارة بقوله [أي قول صاحب الكشاف]: (اتخذ الهوى إلهًا) ، فقدم المشبه به الأصلي، وأوقعه مشبهًا ليؤذن بأن الهوى في باب استحقاق العبادة لها أقوى من الإله تعالى ، كقوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ) .ومن يرى أن الآية من باب التقديم بين المبتدأ والخبر للحصر، فكأنه قال: أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه كما ذهب إليه ابن المنير ومن يرى أن التقديم شيء والقلب شيء آخر كما مال إليه السمين الحلبي[1]، وبنى عليه أن الآية من باب التقديم، وليست من باب القلب.

ويبدو لي أن ما ذهب إليه بعض المفسرين من القول بالتقديم في الآية وليس القلب مما يقبله النظم، وينبني عليه سر بلاغي كما ذهب إليه ابن المنير من القول بالحصر، وأن تقديم الخبر أبلغ في ذم من لم يتخذ معبوده إلا هواه. وكذلك لو أجري على اعتبار تقديم المفعول الثاني كان المعنى: من اتخذ هواه قدوة في أعماله

(١) ولقد فرق بعض البلاغيين بين القلب اللفظي الذي يكون من باب التقديم الذي هو من علم المعاني ، بأن يظل الكلام على حكمه ولو جعل بعض أجزائه مكان الآخر، كما في قولك: في الدار زيد ، وضرب عمرأ زيدٌ بتقديم المفعول، فإن كلًا ولو جعل في محل الآخر باق على حكمه، ومثاله أيضًا: قطع الثوب المسمار تعني به أن الثوب مفعول وترفعه ، والمسمار فاعل وتنصبه ، وكل من هما باق على ما له من فاعلية ومفعولية .أما عن القلب المعنوي فمثاله :قطع الثوب المسمار، تريد أن الثوب لمبادرته بالتقطع كأنه هو الذي قطع المسمار، فهذا قلب معنوي؛ لأنك تخيلت الفعل واقعًا من الثوب على المسمار، وأسندت له على سبيل المجاز" . عروس الأفراح ، ومواهب الفتاح ٤٨٧/١ باختصار وتصرف.

لا يأتي عملًا إلا إذا كان وفاقًا لشهوته، فكأن هواه إلهه، وعلى هذا يكون معنى ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ شبيهًا بإلهه في إطاعته على طريقة التشبيه البليغ كما ذهب إليه الطاهر ابن عاشور لكن فيما يبدو لي أن أجراء النظم القرآني على ترتيبه – كما ذهب إليه الرازي، والبقاعي من المفسرين، ومحمد بن علي الجرجاني، وبهاء الدين السبكي من البلاغيين – أبلغ وأدق في المعنى، من حمل الآية على الآية على التقديم أو القلب؛ وذلك نظرًا لأن المعنى على ترتيب النظم دون اعتبار للتقديم أو القلب يفيد معنى الحصر؛لأن قوله تعالى: (ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ) يفيد الحصر، أي لم يتخذ لنفسه إلهًا إلا هواه كما ذهب إليه الرازي.

فالمعنى أن هذا المذموم قصر نفسه على تأله الهوى فلا صلاح له ولا رشاد، وجعل عوض إلهه هواه ، وجعل الهوى مكان الإله في الاتباع ، ويشهد لهذا المعنى السياق والسباق ؛ لأن الحديث قبلها عن مدى تمسكهم بباطلهم، واعتقادهم في عبادة الأصنام حتى رأوا أنهم كادوا أن يضلوا عنها لولا أن صبروا وثبتوا واستمسكوا بها ، وذلك في قوله تعالى : (إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾) [الفرقان: ٤٢] فلقد رأوا أنها الطريق السوي الذي يجب أن يستمسك به، ويصبر عليه، وأن الانحراف عنها هو غاية الضلال، "وفي هذا دلالة على اجتهاد النبي في دعوتهم، ووضوح حججه ومعجزاته لولا فرط جحودهم وعنادهم ، وإصرارهم على الباطل واستمساكهم به" [(١)].

(١) روح المعاني ٢٣/١٩ بتصرف واختصار.

جاء نظم هذه الآية ليلتحم في الغاية والغرض مع نظم الآية التي تليها موضع البحث ليصور لنا مدى الغي والضلال الذي وصلوا إليه، ومدى اعتقادهم في هذه الأصنام؛ ولذلك صدرت الآية بالاستفهام" لتعجيب رسول الله من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال، والتنبيه على ما لهم من المصير والمآل، وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يرى ويتعجب منه "(١).

ولقد جاءت الآية التي بعدها مناسبة للمعنى تمام المناسبة، وملتحمة مع السياق والسباق تمام الالتحام، فهؤلاء المذمومون الذين لم يتخذوا لأنفسهم إلهًا إلا هواهم، واستعاضوا بأهوائهم مكان إلههم في العبادة والاتباع والاعتقاد، لا يسمعون ولا يعقلون (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾) [الفرقان: ٤٤].لقد غلب الهوى على عقولهم ، "فاحذر أن تظن بهم إدراكًا للدلائل أو الحجج " (٢). وهكذا يلتحم النظم. وأرى أن مراعاة الترتيب فيه أولى من الحمل على القلب أو التقديم؛ لأن ما وراء الترتيب يشمل معنى القلب والتقديم وزيادة، وشاهدنا هنا هو السياق قبل وبعد الآية؛ حيث يشير إلى روعة التناسب والانسجام، وتمام الارتباط والالتحام في النظم كما سبق. ويشهد لهذا الموضع نظيره في سورة الجاثية في قوله تعالى: (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾) [الجاثية:

(١) السابق ٢٣/١٩.

(٢) التحرير والتنوير ٣٧/١٩.

٢٣] فهو يشير إلى نفس المعنى، أي اتخذ معبوده ما يهواه " فهو مطواع لهوى نفسه، يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه"[١].فالهوى يقوم مقام الإله عنده في استحقاقه للطاعة والاتباع؛ حيث انطمست بصيرته، وحرم الخير من جميع جوانبه كما تشير إلى ذلك الآية؛ ولقد صدرت الآية أيضًا بالاستفهام الذي يفيد معنى التعجيب، " فإن هذا أمر يتعجب منه غاية التعجيب"[٢]. وكون النظم على ترتيبه من غير نظر لاعتبار التقديم أو القلب هو ما يشهد لها سياق الآية وسباقها، وما بعدها أيضًا؛ حيث جاءت في غاية التناسب في النظم مع ما قبلها وما بعدها [٣].

الموضع الرابع:

قوله تعالى: (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) [آل عمران: ٣٦].

المجيزون للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: ذهب السيوطي إلى أن الآية من التشبيه المقلوب" فإن الأصل، وليس الأنثى كالذكر؛

(١) الكشاف ٤٨٧/٥.

(٢) حاشية القونوي ٤٣٤/١٧.

(٣) فقبلها في أوائل السورة قوله تعالى : (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝) [الجاثية: ٧-١٠] ، وبعدها قوله تعالى : (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝) [الجاثية: ٢٤-٢٦].

وإنما عدل عن الأصل لأن المعنى: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهبت، وقيل لمراعاة الفواصل؛ لأن قبله (إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ) "[1]. وهو ممن صرح بأن الآية من التشبيه المقلوب متابعًا في ذلك ابن الزملكاني؛ حيث إنه ممن زعم أن الآية من التشبيه المقلوب أيضًا كما نقل ذلك عنه بهاء الدين السبكي[2]. لكن هذه الآية لم يتفق بقية المفسرين والبلاغيين على كونها من التشبيه المقلوب، بل اختلفت عباراتهم حول التشبيه في الآية، وحول سر التقديم لـ (الذكر) على (الأنثى)، وذلك بناءً على اختلافهم في توجيه المعنى لاختلاف القراءة في قوله تعالى: (وَضَعَت) ، وكذلك اختلافهم حول معنى اللام، في لفظتي (الذكر، والأنثى) هل هي للعهد أم للجنس بناءً على اختلافهم في توجيه القراءة؟

أما عن القراءة، فلقد قرأ جمهور القراء قوله تعالى (وَضَعَت) [3] بفتح العين وإسكان التاء ، وقرأ ابن عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوب (وَضَعَت) بضم التاء ، وقرأ ابن عباس (وَضَعَت) بكسر تاء الخطاب[4]." فمن ضم التاء جعل

(١) معترك الأقران ٢٠٧/١، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٠٨) هـ (١٩٨٠) م، بتحقيق أحمد شمس الدين، وذكر السيوطي ذلك في الإتقان أيضًا ١٥٤١/٤، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، (١٤٢٦) هـ.

(٢) عروس الأفراح ٤٠٩/٣.

(٣) وأول الآية : (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾) [آل عمران: ٣٦].

(٤) الكشاف ٥٥١/١ ، والمحرر الوجيز ٤٢٥/١ ،٤٢٦ ، والبحر المحيط ٤٥٧/٢.

هذا من كلام أم مريم، وهو كقول القائل: رب قد كان كذا وكذا، وأنت أعلم بما كان، ليس يريد بقوله: "رب قد كان كذا " إعلام الله سبحانه وتعالى، ولكنه كالخضوع منه والاستسلام لله تعالى[١] فقالت ذلك للاعتذار[٢]. وعلى هذه القراءة ففي اسم الجلالة التفات من الخطاب إلى الغيبة إظهار لغاية الجلال فيكون ذلك اعتذارًا منها إلى الله تعالى؛ حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته من السدانة، أو تسلية لنفسها على معنى: لعل لله تعالى فيه سرًا وحكمة، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر[٣]. " ومن قرأ بإسكان التاء، وهو أجود القراءتين كان قوله: (وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ) من كلام الله تعالى، وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنه تعالى قال: والله أعلم بما وضعت تعظيمًا لولدها، وتجهيلًا لها بقدر ذلك الولد ، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وبما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئًا فلذلك تحسرت[٤]"فمريم عليها السلام وإن كان ظاهرها الأنوثة ففيها حقيقة المعنى الذي ألحقها بالرجال في الكمال ؛ حتى كانت ممن كمل من النساء لما لا يصل إليه كثير من رجال عالمها، فكان في إشعاره أن الموضوع كان ظاهره ذكرًا، وحقيقته أنثى"[٥].أما على قراءة ابن عباس(وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ

(١) التفسير البسيط ١٩٥/٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/٨.

(٣) الكشاف ٥٥١/١، وتفسير أبي السعود ٤٧٠/١.

(٤) التفسير البسيط ١٩٦/٥، وتفسير الرازي ٢٨/٨، والدر المصون ١٨٥/٣.

(٥) نظم الدرر ٣٥٢/٤.

بِمَا وَضَعَتْ) "على خطاب الله تعالى لها، أي إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره[١].

هذا عن توجيه المعنى حسب كل قراءة، ويبقى هنا خلاف المفسرين حول اللام في لفظتي (الذكر والأنثى) التي هي محل الشاهد في الآية، هل هي للعهد أم للجنس؟. فلقد ذهب صاحب الكشاف أن اللام فيهما للعهد، ومعناه (وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها [٢].

وعليه فهذه الجملة معترضة أيضًا من كلام الله تعالى تكملة للاعتراض المبدوء بقوله: (وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ)، والمعنى: وليس الذكر الذي رغبت فيه بمساوٍ للأنثى التي أعطيتها لو كانت تعلم علو شأن هذه الأنثى ، وجعلوا نفي المشابهة على بابه من نفي مشابهة المفضول للفاضل ، وإلى هذا مال صاحب الكشاف ، وتبعه صاحب المفتاح"[٣].

وذهب أكثر المفسرين إلى أن اللام فيهما للجنس وليست للعهد، على أن يكون من كلام أم مريم؛ حيث إن الذكر ليس كالأنثى في المزية؛ إذ هو صالح لخدمة المتعبدات وللتحرير، ومخالطة الأجانب بخلاف الأنثى[٤]؛ إذ الأنثى تحيض ولا تصلح لصحبة الرهبان [٥]. كما أن الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة بخلاف

(١) الكشاف ١/٥٥١.
(٢) السابق ١/٥٥١.
(٣) التحرير والتنوير٣/٢٣٣.
(٤) الدر المصون٣/١٣٦، ١٣٧.
(٥) المحرر الوجيز ١/٤٢٥.

الأنثى [١]، فالتعريف للجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساويًا لجنس الأنثى، وجملة (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) خبر مستعمل في التحسر لفوات ما قصدته من أن يكون المولود ذكرًا فتحرره لخدمة بيت المقدس"[٢].

ونتوقف هنا عند من قال إن اللام للجنس؛ حيث يرى بعض المفسرين أن هناك تقديمًا في الآية، وأن أم مريم "بدأت بذكر الأهم في نفسها، وأن سياق قصتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها، وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد"[٣] ، ذهب إلى ذلك ابن عطية، ومال إليه أيضًا السمين الحلبي، ولكنهما لم يصرحا بكون الآية من التشبيه المقلوب [٤].

المانعون للقلب في الآية من المفسرين والبلاغيين: ذهب أكثر المفسرين إلى أن الآية ليست من العكس في التشبيه، وأن التشبيه هنا ليس لإلحاق الناقص بالكامل، بل هي من التشابه، وهذا على القول بأن قوله تعالى: (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) من قول أم مريم ، وأن اللام للجنس وليست للعهد كما عليه أكثر

(١) وذكر الرازي قولًا ثانيًا على أن يكون المقصود من هذا الكلام ترجيح الأنثى على الذكر، كأنها قالت: الذكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه. تفسير الرازي ٢٨/٨، ٢٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٣/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤٢٥/١.

(٤) الدر المصون ١٣٧/٣.

المفسرين وأوَّلَ بعضهم أنه حتى على القول بالعكس فإن التشبيه يعود إلى التشابه، وفي ذلك يقول القونوي: " ... فكان حق الكلام هنا وليس الأنثى كالذكر، لكنه عكس تنبيهًا على أن بعض أفراد النساء لكمالها جعل جنس الأنثى بالنسبة إليه مشبهًا به ، ومعلوم أن جنس الذكر مشبه به ، فجاز كل منهما مشبهًا ومشبهًا به فصح التشابه"[1] وما ذكره القونوي هنا إنما هو – فيما يبدو – توجيهًا للتشابه؛ لأنه وجد الكلام ظاهرًا في التشبيه، فذكر هذا التأويل تأييدًا لقول البيضاوي الذي يرى أن التشبيه ليس لإلحاق الناقص بالكامل في الآية بل من التشابه.

وهو ما ذهب إليه الطاهر ابن عاشور." [2]. ولقد ذكر الشهاب الخفاجي أنه إذا دخل نفي بـ (لا) أو غيرها أو ما في معناه على تشبيه مصرح بأركانه أو ببعضها احتمل معنيين: تفضيل المشبه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه بكذا لأن وجه الشبه فيه أولى وأقوى، كقولك: ليس زيد كحاتم في الجود، ويحتمل عكسه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه به لبعد المسافة بينهما"[3].

وهذا ما ذهب إليه أيضًا ابن المنير في حاشيته على الكشاف[4]،و بهاء الدين السبكي حيث يقول:" ومن التشبيه المقلوب فيما زعم ابن الزملكاني في البرهان: قوله تعالى : (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ)، وليس كما قال ، فإن المعنى: ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وضعت لأن الأنثى أفضل منه ، وسواء أكان ذلك من كلام الله غير محكي ، والتقدير وليس الذكر الذي طلبت ، أو من كلامها، والتقدير ليس الذكر الذي طلبت ، وتكون علمت ذلك لما رأت من حسن أوصافها

(١) حاشية القونوي ١١٨/٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٤/٣ باختصار.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٢٢/٣.

(٤) الانتصاف ٥٥٠/١.

فتفرست فيها أنها خير من الذكر الذي طلبته"[1]. وهو ما ذهب إليه أيضًا بدر الدين الزركشي؛ حيث يرى أن الآية ليست من التشبيه المقلوب كما زعم ابن الزملكاني، بل المعنى" (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ) الذي طلبت (كَٱلْأُنثَىٰ) التي وهبت لها؛ لأن الأنثى أفضل منه". [2]

تعقيب:

من خلال ما سبق يتضح أن أكثر المفسرين لم يصرحوا بوجود التشبيه المقلوب في الآية، وإنما الذي أشار إلى وجوده فيها ابن الزملكاني، والسيوطي، ولم يتابعهما بقية البلاغيين والمفسرين في ذلك؛ حيث نظروا – فيما يبدو لي إلى نظم الآية نظرة لا تنحصر في وجود التشبيه فقط، بل تتسع لتشمل السياق بكامله .فإننا لو حملنا قوله تعالى : (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) على أنه من كلام أم مريم فإن الكلام لن يكون فيه أي وجه من وجوه القلب، وإنما فيه تقديم لما هو أمَسُّ بالنفس، وأهم عندها؛ حيث كانت تريد أن يكون مولودها ذكرًا محررًا لخدمة بيت المقدس ، وهذا أمر لم يكن إلا للذكور.

أما أن يكون مقصودها تنقيص الأنثى، والإقلال من شأنها بجانب الذكر، فيبدو أن ذلك مما لا يرد في هذا الموضع ؛ وذلك لثقتها في عطاء الله ، وما رزقها به؛ ولذلك ذكر الرازي قولًا ثانيًا في تأويل الآية بين من خلاله أن كلامها المقصود منه ترجيح الأنثى "كأنها قالت : الذكر مطلوبي ، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى ، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله ، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله ، عالمة بأن ما يفعله الرب

(١) عروس الأفراح ٣/٤٠٩.

(٢) البرهان ٣/٤٢٦.

بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه"[١]. وهو ما ذهب إليه أيضًا بهاء الدين السبكي كما سبق؛ حيث بين أن المعنى" ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وضعت لأن الأنثى أفضل منه، وسواء أكان ذلك من كلام الله غير محكي، والتقدير وليس الذكر الذي طلبت، أو من كلامها، والتقدير ليس الذكر الذي طلبت، وتكون علمت ذلك لما رأت من حسن أوصافها فتفرست فيها أنها خير من الذكر الذي طلبته". ويشهد لهذا التوجيه لمعنى الآية قراءة الضم في(وَضَعْتُ ﴾عند ابن عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوب؛ حيث يكون الكلام لأم مريم وفق هذه القراءة ، وهو كما يقول الواحدي :" وهو كقول القائل : رب قد كان كذا وكذا ، وأنت أعلم بما كان، ليس يريد بقوله: رب قد كان كذا " إعلام الله سبحانه وتعالى، ولكنه كالخضوع منه والاستسلام لله تعالى"[٢] ، ولذلك لا حاجة إلى القياس الذي ذكره بعض المفسرين؛ حيث ذكروا أن "قياس كونه من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذكر، فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة للذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس"[٣].

ولقد أجاب ابن المنير على هذا القياس كما سبق بما يدفعه، كما وجه القونوي هذا القياس الذي فرضوه بما ينسجم مع القول بالتشابه الذي سيأتي الحديث عنه [٤]. أما عن وجود التشبيه في الآية، فإن التشبيه في الآية ليس على الوجه الذي يراد به إلحاق الناقص بالكامل حتى يستقيم القول بالعكس بين طرفيه، أو ليس هو التشبيه الذي يتوخى فيه أن يكون المشبه أضعف من المشبه به.

(١) تفسير الرازي ٢٨/٨، ٢٩.
(٢) التفسير البسيط ١٩٥/٥.
(٣) الانتصاف ٥٥٠/١.
(٤) حاشية القونوي ١١٦/٨.

بل هو من التشابه. والتشابه كما يراه البلاغيون يعني "ترك التشبيه؛ حيث إنه لا يراد إلحاق ناقص بزائد في وجه الشبه حقيقة أو ادعاءً، وإنما المقصود: مجرد الجمع بين شيئين في أمر، ليكون كل واحد من الطرفين مشبهًا ومشبهًا به احترازًا من ترجيح أحد المتساويين على الآخر"(١). وهو كما ذكره ابن يعقوب المغربي: " بأن يؤتى بما يدل على التشابه والتساوي، وذلك بأن يعبر بالتفاعل المقتضي لحصول مدلوله من الجانبين، فيكون كل من الأمرين مشبهًا ومشبهًا به، فلا يكون من التشبيه السابق المقتضي لتعين المشبه من المشبه " (٢).

فمضمون التشابه: التساوي" (٣). ولا يفهم من هذا أن التشابه لا ينطوي على قصد المبالغة، فقد "يقتضي المقام ادعاء المبالغة في التساوي ، أو يكون الغرض إفادة أصل الاشتراك ، فيكون المقصود إفادة التساوي ادعاءً أو حقيقة"(٤).ففي هذه الآية الكريمة كما يلحظ من نظمها ومناسبتها، وتوجيه القراءات فيها لا يتسق القول بوجود التشبيه المقلوب فيها مع معنى الآية وسياقها؛ ولذلك ذهب أكثر المفسرين إلى أنها ليست من التشبيه المقلوب، وجعلوا التشبيه فيها من التشابه كما سبق (٥).

الموضع الخامس:

(١) الإيضاح ٤١/٣.

(٢) مواهب الفتاح ٤١٢/٣.

(٣) عروس الأفراح ٤١٢/٣.

(٤) بغية الإيضاح ٤١/٣.

(٥) ولذلك لم يشر صاحب الكشاف أو البيضاوي إلى وجود قلب في الآية. الكشاف ٥٥١/١ ، وأنوار التنزيل ١٤/٢.

قولـــــــه تعـــــــالى: (يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ) [الأحزاب: ٣٢] المجيزون للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: يرى الطيبي أن هذه الآية من التشبيه المقلوب، وأنها جاءت على العكس كما سبق في بعض المواضع التي تشبهها، حيث يقول: " وجاء التفضيل هنا كمجيئه في قوله تعالى: (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧) [النحل: ١٧]، وكقوله: (وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ) [آل عمران: ٣٦]، وقد مضت فيه نكتة، أي الأصل: أفمن لا يخلق كمن يخلق، وليس الأنثى كالذكر، وكذا هاهنا: ليست إحداكن نحو أحد من آحاد النساء"(١). وقد بنى قوله هذا على عبارة صاحب الكشاف – فيما يبدو – حيث قال:" ومعنى قوله: (لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ) لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، أي: أذا تقصيت أمة النساء جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة"(٢). وممن جوز كون الآية من التشبيه المقلوب – حسب الظاهر – القونوي "(٣). ومن البلاغيين الذين قالوا بأن الآية من التشبيه المقلوب: بهاء الدين السبكي، ولكن دون أن يبين وجه القلب في الآية "(٤). ومن المعاصرين الذين جوزوا كون الآية من التشبيه المقلوب: الدكتور عبد القادر حسين، حيث قال: " فالتشبيه على القلب. والأصل ليس أحد من النساء

(١) حاشية الطيبي على الكشاف ٤١٦/١٢.
(٢) الكشاف ٦٦/٥.
(٣) حاشية القونوي ٣٥٢/١٥.
(٤) عروس الأفراح ٤٠٩/٣.

مثلكن، أما إذا كان المعنى لستن كأحد من النساء في النزول، فلا قلب في التشبيه" [1].

أما عن المانعين للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: فمنهم ابن المنير؛ حيث أشار إلى أن الآية ليست من العكس في التشبيه ، وهو بصدد الحديث عن القلب التشبيه في قوله تعالى : (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) . حيث قال : " ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذكر، فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة للذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس ، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفًا، فلم يثبت لي عين ما قالوه ، ألا ترى إلى قوله تعالى: (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ) . فنفى عن الكامل شبه الناقص مع أن الكمال لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى العموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران ، والله أعلم ، ومنه أيضًا (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾) [2]. وذكر الطاهر ابن عاشور أن الآية من قبيل نفي المشابهة، فهو – كما يبدو – لا يرى أنها من قبيل العكس في التشبيه؛ وذلك حيث قال:" ونفي المشابهة هنا يراد به نفي المساواة مكني به عن الأفضلية على غيرهن... فالمعنى أنتن أفضل النساء، وظاهره تفضيل لجملتهن على نساء هذه الأمة "[3]. ويرى الدكتور محمد إبراهيم شادي "أن الأولى هو العودة إلى السياق، مع الأخذ في الاعتبار باتجاه المفسرين في الصياغات

(١) القرآن والصورة البيانية صـ ١٠٦، ط عالم الكتب، بيروت ، ط ٢ ، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
(٢) الانتصاف ٥٥٠/١.
(٣) التحرير والتنوير ٧/٢٢ باختصار.

القرآنية التي قيل فيها بقلب التشبيه ... ويرى أن هذا الموضع من قبيل التشابه، أي لمجرد الجمع بين الطرفين من غير قصد إلى كون أحدهما ناقصًا والآخر زائدًا سواء وجدت الزيادة والنقصان أو لا "[1].

تعقيب:

اتضح من خلال ما سبق أن بعض المفسرين والبلاغيين يرى أن الآية من قبيل التشبيه المقلوب، ولكن عند التأمل في نظمها وسياقها يتضح أن الآية ليست من قبيل القلب في التشبيه؛ حيث إن الغرض هنا هو نفي المشابهة الذي يقتضي نفي المساواة، وقد خرج التشبيه هنا عن أن يكون المقصود به إلحاق ناقص بكامل حتى يستقيم العكس بين طرفيه، فلا حاجة لتقدير العكس في التشبيه؛ لأن المعنى يستقيم دون الحاجة إلى اعتبار القلب بين الطرفين. فالمقصود نفي المساواة بينهن وبين أحد من النساء لما لهن من المنزلة والمكانة في الدين، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يساويهن أو يشابهن أحد من النساء في هذه المنزلة، أو في هذا الفضل؛ ولذلك ذكر القونوي أن الآية قد يراد بها التشابه الذي سبق الحديث عنه في الآية السابقة، أي ترك التشبيه، وعليه فلا تكون من التشبيه المقلوب.، كما أن النظم على ترتيبه مع وجود النفي الذي يقتضي المبالغة في نفي مشابهتهن لأحد من عموم النساء يعطي من المعنى ما هو أبلغ من اعتبار القلب، فلهن من المزايا والفضائل والخصائص ما ليس لغيرهن، ولذلك قدم ضميرهن في الذكر بعد النفي لبيان شرف منزلتهن ومكانتهن، ولذلك لم يقل: كواحدة من النساء لأن أحدًا للنفي العام لكل واحد من الجنس كما ذكر الطاهر ابن عاشور. فكأن المعنى: أنتن لا تشبهن أحدًا من النساء، فلكن من الفضائل والمنزلة ما ليس لغيركن من سائر

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية دراسة تحليلية لمسائل علم البيان صـ ١٧٧ باختصار، ط: دار والي الإسلامية، المنصورة ، ط ١ ، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

النساء، ولا يساويكن أحد من النساء في هذا الشأن. فهو كقول القائل في مقام التفضيل والتكريم:" أنت لا تشبه أحدًا من الناس"، أي أنه نسيج وحده، لا يساويه أو يدانيه أحد في الفضل. والله أعلم. وكما يقول ابن عجيبة: إن المعنى " لستن في الشرف كأحد من النساء" [1]، وعليه فمن ذهب إلى أن الآية من قبيل التشابه – أي نفي المساواة – وليس من قبيل التشبيه المقلوب أولى بالقبول؛ ولأن نظم الآية ومعناها يشهد لذلك كما سبق.

الموضع السادس:

قوله تعالى: (أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ) [ص: ٢٨] .

المجيزون للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: ذكر بدر الدين الزركشي أن " بعضهم أورد أن أصل التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى، فيقال:" أفنجعل المجرمين كالمسلمين[2]، والفجار كالمتقين "، فلم خولفت القاعدة؟ ويقال فيه وجهان: أحدهما: أن الكفار كانوا يقولون: نحن نسود في الآخرة، كما نسود في الدنيا، ويكونون اتباعًا لنا، فكما أعزنا الله في هذه الدار يعزنا في الآخرة، فجاء الجواب على معتقدهم أنهم أعلى وغيرهم أدنى. الثاني: لما قيل قبل الآية (وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ)

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن عجيبة ٤٢٨/٤، ط القاهرة على نفقة حسن عباس زكي، (١٤١٩) هـ (١٩٩٩) م، بتحقيق أحمد عبد الله رسلان.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: (أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥) [القلم: ٣٥]، وهو الموضع السابع من مواضع البحث ، وسيأتي الحديث عن هذه الآية بعد هذا الموضع.

[ص: ٢٧] ؛ أي أيظنون أن الأمر يهمل، وأن لا حشر ولا نشر، أم لم يظنوا ذلك، ولكن يظنون أنا نجعل المؤمنين كالمجرمين، والمتقين كالفجار"[١].

أما عن المانعين للتشبيه المقلوب في الآية: فأكثر المفسرين، واكتفوا بالإشارة إلى أن المقصود من الاستفهام هنا إنكار التسوية بين أتقياء المؤمنين، وأشقياء الكفار [٢].

تعقيب:

الآية هنا من التشابه لا من التشبيه كما سبق في الآية التي قبلها [٣]، وليس الغرض هنا إلحاق ناقص بكامل، حتى يستقيم القول بقلب التشبيه، بل المقصود من الآية بعد هذا الاستفهام الإنكاري الذي اقتضته (أم) الثانية أن يتساوى المتقون مع الفجار، وذلك بعد أن جاء الإنكار لتساويهم في مطلع الآية في قوله: (أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ) فـ (أم) الأولى منقطعة، والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين المؤمنين الصالحين وبين المفسدين في الأرض، وجاءت بعدها (أم) المنقطعة الثانية، وجاء الاستفهام فيها أيضًا للإنكار " وهذا الارتقاء في الاستدلال لقصد زيادة التشنيع على منكري البعث والجزاء بأن ظنهم ذلك يقتضي أن جعل الله المتقين مساوين للفجار"[٤].

فهناك تناسب وارتباط بين الآية وما قبلها؛ لأن مطلع هذه الآية إنما جاء بـ (أم) للإضراب الانتقالي، وللارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث، وبيان

(١) البرهان ٤٢٨/٣، ٤٢٩.

(٢) ينظر على سبيل المثال: تفسير البيضاوي ٢٨/٥، وتفسير أبي السعود ٢٢٤/٧، وحاشية الشهاب ٣٠٨/٧.

(٣) ينظر في كون الآية من التشابه حاشية القونوي ٣٩٨/١٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٢٤٩/٢٣.

لمقتضى خلق السماوات والأرض بالحق كما جاء في سياق الآية التي قبلها (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ) والمعنى : لو انتفى البعث والجزاء كما تزعمون لاستوت عند الله أحوال الصالحين، وأحوال المفسدين "[1].

فمجيء نظم الآية على هذه الصورة إنما المقصود منه إنكار أن يتساوى المؤمنون والمفسدون، والمتقون والفجار؛ لأن الله (عزو جل) قد خلق السماوات والأرض بحكمته، وأقام ميزان القسط والحق، فكما اقتضت حكمته وجود البعث والجزاء، اقتضت حكمته ألا يتساوى المؤمنون والفجار في الجزاء. ولو انتفى البعث والجزاء كما زعموا لاستوت عند الله أحوال الصالحين والفاسدين، والمتقين والفجار، وهو ما لا يكون، فجاء النظم للإنكار عليهم، وردًا لظنهم الفاسد، ونفيًا للمساواة بين حال المؤمنين المتقين وحال المفسدين الفاجرين على أبلغ وجه من التأكيد.

(١) السابق ٢٣/٢٤٩ باختصار.

الموضع السابع:

قوله تعالى: (أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾) [القلم: ٣٥] .

المجيزون للتشبيه المقلوب في الآية من المفسرين والبلاغيين: ذكر بدر الدين الزركشي أن الآية من التشبيه المقلوب(١)، ولكنه لم يوضح صورة القلب في الآية. وكذلك سليمان الجمل حيث أشار إلى القلب في الآية بقوله:" وكأن العبارة مقلوبة، والأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين؛ لأنهم جعلوا أنفسهم كالمسلمين، بل أفضل، فالمناسب أن يكون الإنكار متوجهًا لجعلهم المذكور"(٢).

أما عن المانعين للتشبيه المقلوب في الآية: فأكثر المفسرين، واكتفوا بالإشارة إلى أن المقصود من الاستفهام هنا إنكار التسوية بين المسلمين والكافرين، وبين المطيعين والعاصين، فالمقصود الإنكار للتسوية بينهما في الآخرة على أبلغ وجه (٣)، كما أشار القونوي إلى أن الآية من التشابه الذي سبق الحديث عنه في الآية السابقة (٤).

تعقيب:

الآية هنا من التشابه لا من التشبيه كما سبق في الآية التي قبلها، وليس الغرض هنا إلحاق ناقص بكامل، حتى يستقيم القول بقلب التشبيه، وسياق الآية وما قبلها يشهد لكون الغرض هنا الإنكار على الكافرين في تسويتهم بالمؤمنين في

---

(١) البرهان ٤٢٨/٣.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٤٠٤/٤.

(٣) ينظر على سبيل المثال: تفسير البحر المحيط ٣٠٨/٨، وتفسير أبي السعود ٣٧٥/٥، ونظم الدرر ٣١٨/٢٠.

(٤) حاشية القونوي ٢٤١/١٩.

الآخرة،فقبلها قوله تعالى: (إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾) [القلم: ٣٤]، ثم جاء الحديث بعد ذلك ردًا لزعمهم، وإنكارًا لباطلهم فيما ظنوا من أنهم إذا بعثوا يوم القيامة سيكونوا أوفر حظًا وأحسن حالًا من المسلمين كما كانوا في الدنيا.فجاء مطلع الآية بالاستفهام الإنكاري لتساويهم مع المؤمنين في الآخرة، وتوبيخًا لهم، " وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة، وحرمان المشركين منه؛ لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب"(١).

وبعد أن انتهينا من الإشارة إلى المواضع التي ذكر بعض البلاغيين والمفسرين أنها من التشبيه المقلوب في القرآن الكريم يأتي السؤال الذي يحتاج البحث إلى الإجابة عليه، وهو هل يوجد في القرآن تشبيه مقلوب؟

* * * *

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٩٢.

المبحث الثالث

هل يوجد في القرآن الكريم تشبيه مقلوب؟

سأضع الإجابة على هذا السؤال في عدة نقاط يتضح من خلالها وجهة الباحث، ورؤيته المتواضعة لما انتهى إليه من خلال عرض المواضع السابقة، وما سبق نقله عن البلاغيين والمفسرين، ومناقشتهم ، والتعقيب عليهم .

أولا: اتضح من خلال البحث لهذه المواضع السابقة، ومن خلال النظر في النظم القرآني، والسياق الذي جاءت فيه هذه الآيات، اتضح أن حمل هذه الآيات على التشبيه المقلوب ليس من قبيل البلاغة المعجزة التي يقتضيها النظم القرآني. بل إن حمل هذه الآيات على وجوه البلاغة الأخرى من القول بالتشابه، والتقديم، وغير ذلك على نحو ما سبق وعقبت به في المواضع السابقة هو الأنسب والأوفق لما تقتضيه بلاغة النظم القرآني، ومناسبة السياق والسباق في المواضع التي سبقت دراستها.

ثانيًا: يلاحظ أن الإمام عبد القاهر الجرجاني لم يمثل للتشبيه المقلوب بأي مثال من القرآن الكريم، مع كثرة ما أورد من الأمثلة والشواهد لهذا اللون [1]، وكأن الشيخ يرى أن هذا اللون من البيان لا يأتي في النظم القرآني، وإنما يستقيم ويصح في كلام الناس لما فيه من المبالغة والادعاء، والخروج عن الظاهر في نظم الكلام؛ حيث إن التشبيه المقلوب يقوم على غير الحقيقة من إيهام أن المشبه أبلغ من المشبه به في الصفة. فالتشبيه المقلوب كما سبق "أن تقصد على عادة التخييل أن

(١) أورد الشيخ عبد القاهر أمثلة كثيرة للتشبيه المقلوب من كلام الناس والشعراء في أسرار البلاغة صـ ٢٠٤ – ٢١٩.

توهم في الشيء القاصر عن نظيره أنه زائد فتشبه الزائد به"[١] ، وذلك لا يكون إلا على ضرب من التخييل الذي يرمي إليه الشعراء كما في باب المدح، والغزل[٢]، ونحوهما كما ذكر الشيخ [٣].

ثالثا: يتفق الباحث مع ما ذهب إليه المانعون لوقوع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم ، وما عللوا به هذا المنع من كون كلام الله تعالى "على وجه التحقيق لا على وجه المبالغة التي تشبه الكذب"[٤] كما أشار إلى ذلك محمد بن علي الجرجاني، ولما يترتب على القلب في الكلام من فساد المعنى ، وصرف الكلام عن وجهه كما ذكر ابن سنان الخفاجي "[٥] ، ولما فيه من وجوه الغموض في المعاني؛ لأنه خارج عن الطريق السوي في النظم"[٦] ، ولكون القلب بابه الشعر ؛ حيث يقول أبو حيان: " والقلب عند أصحابنا يختص بضرورة الشعر"[٧] ، ولذلك ذهب جمع من العلماء لمنع القلب في القرآن بصورة عامة كما سبق، ومنهم غير من سبق ذكرهم: أبو جعفر النحاس ، وأبو القاسم الآمدي، وابن عطية الأندلسي [٨].

---

(١) نهاية الأرب ٤٢/٧.

(٢) أكثر ما أوقع المتأخرون التشبيه المقلوب في الغزل، وأكثر ما استمدوا صوره من نتاج الطبيعة والغصون والأزهار والثمار يشبهونها بأعضاء المحبوب. فن التشبيه ص ٣١٢.

(٣) أسرار البلاغة صـ ٢١٩ – ٢٢٤.

(٤) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة صـ ٥٢، ١٧١.

(٥) سر الفصاحة صـ ١١٤ – ١١٧.

(٦) منهاج البلغاء صـ ١٨٣، ١٨٤.

(٧) البحر المحيط ١٤٧/٢.

(٨) ينظر القلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين ومراجعه صـ ١٢٦: ٧٠.

رابعًا: مما تجدر الإشارة إليه عدم اتفاق المفسرين من البلاغيين حول مواضع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم، فمنهم من يرى عدم وجود العكس في التشبيه في كل المواضع كما هو الحال عند ابن المنير في تعقبه لصاحب الكشاف، وكما يرى البقاعي. ومنهم من يجوز كون هذه المواضع من التشابه لا من التشبيه كما هو الحال عند بعض أصحاب الحواشي على البيضاوي، مثل: الشهاب الخفاجي، والقونوي، ومنهم من يرى أن بعض هذه المواضع السابقة ليست من التشبيه المقلوب كما هو الحال عند بهاء الدين السبكي. فمواضع التشبيه المقلوب التي سبق ذكرها هي محل خلاف بين البلاغيين من المفسرين.

خامسًا: من النتائج التي تجدر الإشارة إليها أن التشبيه المقلوب في الشعر، وفي كلام الناس ينطوي على فنون من المبالغة والتخييل إذا جاء فيما يستقيم فيه العكس والقلب، وفيما جرت به العادة والإلف عند الناس، ولم يخرج عن حد الاستقامة في التعبير كما سبق ونقلت من ضوابط عند الشيخ عبد القاهر، ومن تبعه من البلاغيين. فبابه الذي يجود فيه وتظهر بلاغته وجماله وفتنته إنما يكون في الشعر، وكلام الناس.

ومن خلال ما سبق تأتي الإجابة على السؤال الذي جاء البحث لأجله، وهو القول بعدم وجود التشبيه المقلوب في القرآن الكريم؛ لأنه البيان الأعلى الذي يستغني ببلاغته وإعجاز نظمه عن اللجوء إلى الضرورات، فنظم القرآن في كل مواضعه السابقة إنما اشتمل بما فيه من دلالات السياق، ودقة التركيب وروعته على ما هو أبلغ من القول بالتشبيه المقلوب الذي يقوم على الادعاء والتخييل الذي يكون في كلام الناس، ولا يتناسب مع جلال كلام الله (عز وجل)، وروعة نظمه وبلاغته. فمراعاة خصوصية البيان القرآني تدفعنا دائمًا إلى مراجعة الوجوه البلاغية التي يذكرها البلاغيون قديمًا وحديثًا لننظر هل هي في مواضعها بما يتناسب مع

نظم الآيات، ويرتبط بمناسباتها في كل موضع أم لا؟ ولا نكتفي بأن ننقل كلام أهل العلم على سبيل الإقرار والمتابعة دون النظر والتأمل إلى وجوه المناسبة للمعنى والنظم، فالقرآن الكريم ببلاغته وإعجازه عطاء متجدد لكل زمان.

*****

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات، محمد بن عبد الله، أفصح خلق الله بيانًا، وأصدقهم جنانًا.

وبعد ،،،

فلقد اتجه البحث لدراسة مواضع التشبيه المقلوب في القرآن الكريم كما ذكرها البلاغيون، وانتهى إلى ما يلي:

أولًا: اختلاف البلاغيين حول قبول القلب، حيث قبله بعض البلاغيين إذا كان وراءه سر بلاغي، ورفضه بعض البلاغيين لما يحدثه من لبس وتعمية في المعنى، كما اختلفوا حول وقوعه في القرآن الكريم بناء على اختلافهم حول وجوده في اللغة.

ثانيًا: فيما يتعلق بالتشبيه المقلوب فلقد قبله بعض البلاغيين على الإطلاق في القرآن وفي كلام الناس، وذهب بعض البلاغيين إلى قبوله في كلام الناس، ورفضه في القرآن الكريم لما فيه من المبالغة والتخييل.

ثالثًا: أشار البحث إلى تعريف التشبيه المقلوب وأسمائه عند البلاغيين، وتطور بحثه بداية من ابن جني ومن جاء بعده كعبد القاهر، والمواضع التي يقبل فيها والتي لا يقبل فيها، وضوابطه، وشروطه، وهل يجري قلب التشبيه في التمثيل، إلى آخر ما سبق ذكره من مباحثه.

رابعًا: تناول البحث بالتحليل المواضع التي ذكر البلاغيون أن فيها تشبيها مقلوبًا في القرآن، وهي سبعة مواضع، مبينًا رأي المجيزين والمانعين والمتوسطين من البلاغيين والمفسرين، ومعقبًا على كل موضع بعد بحثه وتحليله، مرجحًا ما تقتضيه بلاغة النظم القرآني.

خامسًا: انتهى البحث إلى عدم وجود التشبيه المقلوب في القرآن الكريم، وعدم استقامته في النظم القرآني؛ لما فيه من المبالغة والادعاء، والخروج على خلاف الظاهر في نظم الكلام؛ والتخييل والإيهام والغموض الذي يدخل في كلام الناس وأغراضهم؛ ولذلك يجري في أشعار الغزل والمديح ونحوها، ولقد سبق بيان أسباب رده في القرآن الكريم تفصيلًا.

سادسًا: انتهى البحث إلى أن المواضع التي ذكر بعض البلاغيين والمفسرين اشتمالها على التشبيه المقلوب تضم في سياقها وتركيبها من دقائق النظم ما هو أبلغ وأعلى بيانًا من التشبيه المقلوب، ولقد بين البحث في كل موضع هذه الدقائق، مؤيدًا لها بأدلة من السياق والنظم، وكلام المحققين من البلاغيين والمفسرين.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، (١٤٢٦هـ) .
٢. أساليب البيان والصورة القرآنية دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، محمد إبراهيم شادي، ط دار والي الإسلامية، المنصورة، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م) .
٣. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ط مطبعة المدني، القاهرة، جدة، (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م) . تحقيق: محمود شاكر.
٤. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي الجرجاني، ط مكتبة الآداب، القاهرة، (١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م) ، تحقيق: عبد القادر حسين.
٥. الأقصى القريب، زين الدين محمد بن محمد التنوخي، ط مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، (١٣٢٧هـ) .
٦. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ط مكتبة الآداب، القاهرة، (١٩٩٩م) .
٧. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ط مكتبة التراث، القاهرة، (١٢٧٦هـ/ ١٩٥٧م) ، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.
٨. بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، ط مكتبة الآداب، القاهرة، (١٩٩٩م).
٩. البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، فضل حسن عباس، ط دار الفرقان، الأردن، (٢٠٠٥م) .

١٠. البلاغة في ثوبها الجديد، الدكتور/ بكري شيخ أمين، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، (٢٠٠١م) .

١١. تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، ط : مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبد القادر عطا.

١٢. تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط :١، (١٤١٣ هـ/ (١٩٩٣م) ، تحقي : عادل عبد الموجود.

١٣. تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن عجيبة، ط القاهرة على نفقة حسن عباس زكي، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ، تحقيق: أحمد عبد الله رسلان.

١٤. التفسير البسيط، علي بن محمد الواحدي، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، الرياض، (١٤٣٠هـ) ، تحقيق: محمد بن عبد العزيز الخضيري.

١٥. تفسير معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ط دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، (١٤٠٩هـ) ، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين.

١٦. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٤م) .

١٧. تفسير الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ط دار القلم، دمشق، (١٤٠٦هـ) ، تحقيق: أحمد الخراط.

١٨. تفسير السمرقندي بحر العلوم، أبو الليث نصر بن إبراهيم السمرقندي، ط : دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ، تحقيق: علي معوض وآخرين.

١٩. تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط :مكتبة ابن تيمية، القاهرة، تحقيق: محمود شاكر.
٢٠. تفسير الكشاف، جار الله الزمخشري، ط مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) ، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض.
٢١. تفسير اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م) ، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض.
٢٢. تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م) ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.
٢٣. تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤١٨هـ) .
٢٤. تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، ط مطبعة عثمان بك، مطبعة سي، استانبول، (١٩٢٨م) .
٢٥. تفسير روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ط دار إحياء التراث العربي.
٢٦. تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، ط المكتبة العصرية، بيروت، (١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م) م، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري.
٢٧. تفسير فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء، (١٩٩٤م) ، تحقيق: عبد الرحمن عميرة.
٢٨. تفسير قطف الأزهار في كشف الأزهار، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط ١، (١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م) ، تحقيق: أحمد محمد الحمادي.

٢٩. تفسير محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، ط ١، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٠. تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن محمود النسفي، ط دار الكلم الطيب، بيروت، ط ١، (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م) ، تحقيق: يوسف علي بديوي.
٣١. تفسير مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط دار الفكر، بيروت، ط، (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .
٣٢. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ط دائرة المعارف العثمانية، الهند، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٩م) ، تحقيق: محمد عمران الأعظمي.
٣٣. جماليات القلب في البلاغة العربية، صالح عيد الزهراني، مجلة جامعة الإمام، العدد (١٩) (١٤١٨هـ) .
٣٤. جواهر البلاغة، الأستاذ/ السيد أحمد الهاشمي، ط المكتبة العصرية، بيروت، ط١، (١٩٩٩م).
٣٥. حاشية الانتصاف من الكشاف، ابن المنير بهامش الكشاف، ط مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) ، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض.
٣٦. حاشية الجمل على الجلالين الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان الجمل، ط المطبعة العامرة الشرقية، القاهرة، ط ١ (١٣٠٢هـ) .
٣٧. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، ط دار صادر، بيروت، (١٢٨٣هـ) .

٣٨. حاشية الصاوي على الجلالين، أحمد الصاوي، ط المطبعة الأزهرية، القاهرة، ط ١، (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) .
٣٩. حاشية الطيبي على الكشاف، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي، ط جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ، تحقيق: عمر حسن القيام.
٤٠. حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، عصام الدين بن إسماعيل الحنفي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ، تحقيق: عبد الله محمود عمر.
٤١. حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤١٩ هـ/١٩٩٩م) ، بتحقيق محمد عبد القادر شاهين.
٤٢. حدائق السحر في دقائق الشعر، رشيد الدين الوطواط، ط المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٩م) ، تحقيق:إبراهيم الشواربي.
٤٣. حسن التوسل إلى صناعة الترسل، محمود بن سليمان الحلبي، ط المطبعة الوهبية، القاهرة، (١٣١٨هـ) .
٤٤. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ط المكتبة العلمية، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م) ، تحقيق: محمد علي النجار.
٤٥. دراسات بلاغية، الدكتور/بسيوني فيود، ط مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م) .
٤٦. ديوان ذي الرمة بشرح الخطيب التبريزي، ط دار الكتاب العربي، ط٢، (١٤١٦هـ) ، تحقيق: مجيد طراد
٤٧. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

٤٨. شرح عقود الجمان، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٤٩. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، ط مطبعة المقتطف، القاهرة، (١٣٣٣هـ) .
٥٠. عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص، بهاء الدين السبكي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٥١. علم الجمال اللغوي، محمود سليمان ياقوت، ط دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٩٥م) .
٥٢. فن التشبيه، الأستاذ علي الجندي، ط نهضة مصر، القاهرة، ط ١، (١٩٥٢م) .
٥٣. القرآن والصورة البيانية، الدكتور/ عبد القادر حسين، ط عالم الكتب، بيروت، ط ٢، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .
٥٤. القلب البلاغي في القرآن الكريم بين المجيزين والمانعين لأستاذنا الدكتور/ مصطفى جبر، ط مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١، (٢٠٠٢م) .
٥٥. القلب عند البلاغيين والنحاة العرب، عيد شبايك، ط دار حراء، القاهرة، ط ١، (١٤١٩هـ) .
٥٦. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ط نهضة مصر، القاهرة، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة.
٥٧. المطول، سعد الدين التفتازاني، ط دار الكتب العلمية، ط٣، (١٤٣٤هـ) ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
٥٨. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي، ط المطبعة البهية، القاهرة (١٣١٦هـ) .

٥٩. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٠م) ، تحقيق: أحمد شمس الدين.
٦٠. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ط دار الفكر، بيروت، (١٣٩٩هـ) ، تحقيق: عبد السلام هارون.
٦١. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م) ، تحقيق: نعيم زرزور.
٦٢. منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، (١٩٨٦م) ، بتحقيق:محمد الحبيب ابن الخوجة.
٦٣. مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٤. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م) ، تحقيق: مفيد قميحة.
٦٥. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخرالدين الرازي، ط دار صادر، بيروت، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م) .